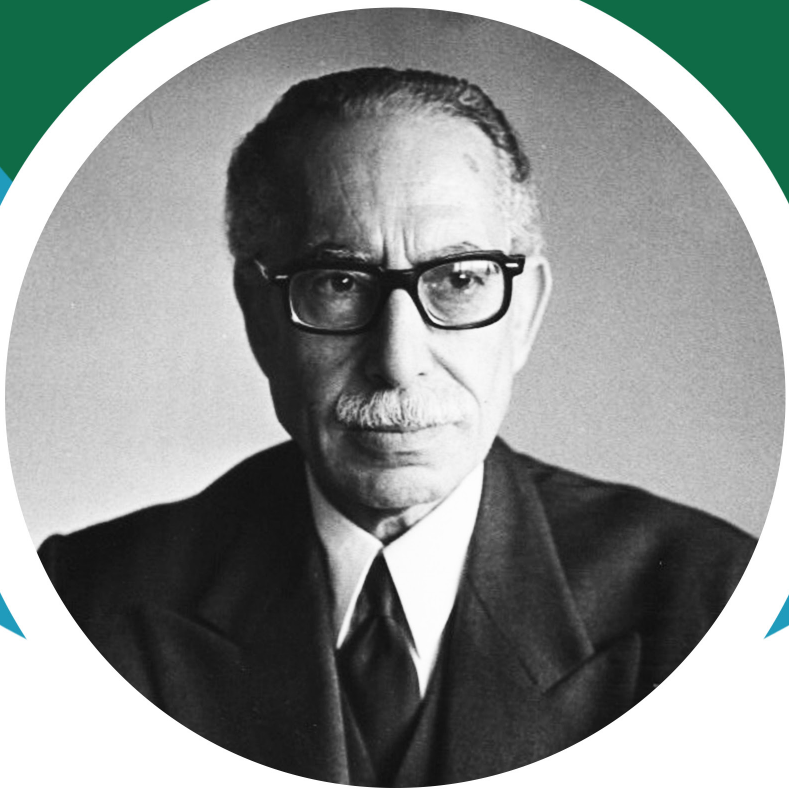

بجماليون

توفيق الحكيم

بجماليون

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

بجماليون

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣١٨٠ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

مقدمة	٧
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٤٥
الفصل الرابع	٦١

مقدمة

مذ نحو عشرين عامًا كنت أكتب للمسرح بالمعنى الحقيقي ... والمعنى الحقيقي للكتابة «للمسرح» هو الجهل بوجود «المطبعة»!

لقد كان هدفي وقتئذٍ في رواياتي هو ما يسمونه «المفاجأة المسرحية» coup de théatre، ولقد كنا نذكُر هذه الكلمة متفاخرين، حتى سرى خبرها بين شيوخ الممثلين من بقايا العهد القديم ... فكان بعضهم يلفظها مُحرَّفة تحريفًا مُضحكًا. لم أَزَل أذكُر قولَ أحدهم — رحمه الله — وهو يوصيني بين آنٍ وآن: «أكثِرْ في دوري يا أستاذ من «الكودي تياتر»!» ... ولم أَزَل أذكُر أيضًا قول مدير المسرح لي: «أتدري كيف أصنع قبل أن أبُتَّ في مصير روايتك؟ ... إني أقرؤها في البيت على أطفالي الصغار، فإذا استمعوا إليها ولم يناموا فهي مقبولة»!

ما الذي حدث لي إذن بعد تلك الأعوام؟! ... كيف صِرتُ إلى هذه الخيبة، حتى أكتب روايات إذا أصغى إليها الكبار ناموا؟!

السبب بسيط: هو أني اليوم أقيم مسرحي داخِلَ الذهن، وأجعل الممثلين أفكارًا تتحرك في المطلق من المعاني، مرتديةً أثواب الرموز! ... إني حقيقةً ما زلتُ محتفظًا برُوح الـ coup de théatre، ولكن المفاجآت المسرحية لم تعُد في الحادثة بقَدْر ما هي في الفكرة ... لهذا اتسعت الهُوَّة بيني وبين خشبة المسرح، ولم أجِدْ «قنطرة» تنقل مثل هذه الأعمال إلى الناس غير «المطبعة»!

لقد تساءل البعض: أوَلَا يمكن لهذه الأعمال أن تظهر كذلك على المسرح الحقيقي؟ ... أمَّا أنا فأعترف بأني لم أفكر في ذلك عند كتابة روايات مثل: «أهل الكهف»، و«شهرزاد»، ثم «بجماليون»!

ولقد نشرتُها جميعًا ولم أرضَ حتى أن أسمِّيها «مسرحيات»؛ بل جعلتُها عن عَمْد في كتبٍ مستقلة عن مجموعة «المسرحيات» الأخرى المنشورة في مجلدين، حتى تَظلَّ بعيدة عن فكرة التمثيل!

لهذا دُهشتُ وتخوفتُ يومَ فكَّروا في افتتاح «الفرقة القومية»، عند إنشائها ... برواية «أهل الكهف»، ولقد راجعتُ القائمين بالأمر حينما سألوني الإذنَ في تمثيلها، فلمَّا طمأنوني تركتُهم يفعلون، دون أن أحضُر تجربةً من تجارب الإخراج؛ بل لقد لبثتُ ممتنعًا عن مشاهدة تمثيلها حتى آخر ليلة ... فذهبتُ مخدوعًا بقولِ مَن قال: إنها نجحت ... فماذا رأيت؟

رأيتُ ما توجَّستُ منه؛ أن هذا العمل لا يصلُح قَط للتمثيل، أو على الأقل لا يصلُح للتمثيل على الوجه الذي أَلِفَه أغلبُ الناس؛ فالممثلون يعرِضون مواقفَ وأزماتٍ لا يرى الجمهور أن مثلها مما يُكتب للمسارح لإثارة العواطف!

لقد خرجتُ تلك الليلة وأنا أشكُّ في عملي، وأُومن بصواب رأي الناس؛ فلقد وُجد المسرح ليشهد فيه النَّظَّارة صراعًا يستثير الْتفاتهم ويهزُّ أفئدتهم؛ صراع هو في المسرح الدموي، بين درعٍ ودرع، أو بين ثورٍ ورجل ... وهو في المسرح التمثيلي بين عاطفةٍ وعاطفة!

هكذا كان المسرح دائمًا ويكون. وإن الناس ليتأثرون دائمًا بالعواطف التي يحسُّونها في حياتهم الواقعة؛ كالحُب والغيرة، والحقد والانتقام، والعدالة، والظلم، والصفح، والإثم! ...

لكن ماذا هم يشعرون أمام صراعٍ بين الإنسان والزمن، وبين الإنسان والمكان، وبين الإنسان وملكاته؟ ... هذه الأشياء المُبهَمة والأفكار الغامضة أتصلح لهزِّ المشاعر بقَدْر ما تصلح لفتق الأذهان؟

هكذا انتهى بي الأمر إلى السعي لدى القائمين بشأن «الفرقة القومية»، حتى أوقفوا تمثيل «أهل الكهف» إلى اليوم! ...

أترى ينبغي لمثل هذه الروايات إخراجٌ خاص في مسرحٍ خاص؛ إخراج يُلتجأ فيه إلى وسائل غامضة؛ من موسيقى وتصوير، وأضواء وظلال، وحركة وسكون، وطريقةِ إيماءٍ وإلقاء! ... وكل ما يُحدث جوًّا يهمس بما تهمس به تلك المعاني المطلقة؟ ... ربما، ولعلِّي كنت أقول «لا» في هذا أيضًا؛ لو لم أعرف رأي Lugné-Poé في رواية «شهرزاد» ... لقد كتَبَ حقًّا يقول:

Le conte a fort bien dit, mais cela meriterait d’étre présent à la scéne francaise avec goùt et intelligence: Le poéme reste si beau, et si profound.

هذا الفنان يدرك المُعضِلة في مثل هذه الروايات ... كل الصعوبة في الحقيقة هي في إبقاء الشِّعر أو الفلسفة يشيعان في جوِّ المسرح كما شاعا في جوِّ الكتاب.

وهذا ما فعله هو نفسه في روايات «إبسن»، وهو أول مَن أخرجها للفرنسيين ...

وهذا أيضًا ما فعله في رواية «سالوميه» لـ «أوسكار وايلد»، وهو أول مَن أخرجها للعالمين ... وكان «أوسكار وايلد» يومئذٍ في السجن ... فلمَّا علِمَ أنَّ Lugné-Poé شارِعٌ في إخراج روايته؛ لم يكتم فَرَحه، ففاض به على صفحات كتابه De Profundis ...

من سوء حظي أن الشيخوخة كانت قد أقعدتْ هذا الفنان العظيم وأقصَتْه عن المسرح منذ زمن بعيد ... أتراه كان يُخرج «شهرزاد» لو أنه قرأها وهو في نشاطه الفني؟ ... مَن يدري؟ ... ربما كان يفعل ... ولو أنه فعل لكان هو المَجد! ... بل خيرٌ منه عندي هو الفرح؛ أن أرى تلك المعاني الحائرة والألفاظ الطائرة والأشخاص التي تضع قدمًا على الأرض وأخرى في الهواء، قد استقرَّت كلها داخل إطار، وأي إطار من الذوق والفهم! ... ولكنَّ القدَرَ — على الرغم من جهادٍ وكد؛ كرست لهما حياة لم أنْعَم فيها بشيءٍ قَط غير متعة الفن وحدها — لَيَستكثِرُ عليَّ هذا الفرح الفني الآن، وربما سمَحَ به يومًا ... ولكن بعد فوات الأوان!

وأخيرًا ... فإن قصة «بجماليون» هذه تقوم على الأسطورة الإغريقية المعروفة، ولعل أول مَن كشَفَ لي عن جمالها تلك اللوحة الزيتية «بجماليون»، و«جالاتيا» بريشة «جان راوكس» المعروضة في «متحف اللوفر» ... ما إن وقَعَ بصري عليها منذ نحو سبعة عشر عامًا، حتى حرَّكتْ نفسي، فكتبتُ وقتئذٍ قطعة «الحلم والحقيقة»،[1] وكنت آمُل أن أعود يومًا إليها، فأضَع كل ما خامرني منها في عملٍ أكبر وأرحب!

ومرَّت الأيام، واتجهتُ إلى «قَصص القرآن» و«ألف ليلة وليلة»، وكِدتُ أنسى قصة اليونان ... حتى ذكَّرني بها «برناردشو» يومَ عُرضتْ مسرحيته «بجماليون» في شريطٍ من أشرطة السينما منذ عامين!

عندئذٍ تيقظتْ في نفسي الرغبة القديمة، فعزمتُ على كتابة هذه الرواية ... وقد فعلتُ، وأنا أعلم أن هذه الأسطورة قد استُخدمت في كل فروع الفن على التقريب، ولا بدَّ أنها أُفرغت في مسرحيات عدَّة فيما أعتقد، وإن كنت لا أعرف غير قصة الكاتب الأيرلندي!

[1] راجع كتاب «عهد الشيطان».

إني أعالج إذن أسطورةً «مطروقة» في الآداب والفنون العالمية ... ومع ذلك مَن يدري؟ ... ربما لحَظَ بعض النقاد القرَّاء أن «أهل الكهف» المُقتبَسة عن القرآن، و«شهرزاد» المُستلهَمة من «ألف ليلة وليلة»، و«بجماليون» المُنتزَعة من أساطير اليونان! ... ليست كلها غير ملامح مختلفة في وجهٍ واحد.

توفيق الحكيم

تجري القصة كلها في منظرٍ واحد، هو بَهوٌ في دار «بجماليون»، وأهم ما في البهو نافذة كبيرة تكشف من خلفها عن غابةٍ ذات أشجار وأزهار غريبة، ثم باب يؤدِّي إلى الخارج، وآخر يؤدِّي إلى داخل الدار ... وفي أحد الأركان ستار أبيض من حرير.

هذا المنظر ثابت في الفصول الأربعة، على أن هنالك مع ذلك أشياء تتغير في كل فصل؛ تلك هي أضواء الغابة وظلالها وسكونها وهمساتها!

الفصل الأول

(ظلام الليل قد بدَّدته أشعة القمر الطالع في سماء الغابة ... ليس في البهو أحدٌ غير الفتى «نرسيس» ... وهو جالس أمام الستار.)

(موسيقى وأصواتُ غِناء يحملها النسيم من بعيد، ترقص على أنغامها في الغابة «جَوقَة» من راقصاتٍ تسع جميلات كأنهن «عرائس الخيال» التسع، وهنَّ يرمقْنَ النافذة ... ويقتربْنَ منها رُوَيدًا رُوَيدًا.)

* * *

الجَوقَة (في همس خارج النافذة): نرسيس!
نرسيس (يلتفت دون أن ينهض): اذهبْنَ! ... اذهبْنَ قبل أن يأتي فيُبْصِركُنَّ ها هنا!
الجَوقَة: نرسيس! ... الليلة عيد فينوس!
نرسيس: أعرف ... أعرف! ... اذهبْنَ قبل أن يأتي!
الجَوقَة: ذلك الذي يعيش بعيدًا عن المرأة!
نرسيس: إنه آتٍ عمَّا قليل!
الجَوقَة: ذلك الذي حرَّم الحب!
نرسيس: إن غيبته لن تطول!
الجَوقَة: ذلك الذي أنكرته فينوس!

(الباب يطرق.)

نرسيس: ها هو ذا! ... ها هو ذا!

الجَوقَة: بل تلك امرأة من المدينة رأتْك فأحبَّتك، وأقسمتْ أن تكون لها وتكون لك!
المرأة (تفتح الباب في رفق، وتُطلُّ برأسها قائلةً في ابتسامة): أتأذن لي في الدخول؟
نرسيس (في عنف): لا!
المرأة (تدخل، وتُغلق خلفها الباب): شكرًا! ... إني كنت أتوقَّع هذا الجواب!
نرسيس: إني قلت «لا»!
المرأة (وهي تدنو منه): وأنا لم أنتظر منك جوابًا غير «لا»؛ لأن من الحماقة أن أتوقَّع غير هذه الكلمة من فمك ... ولكنك لن تقوى على منعي من اقتحام بابك، والجلوس هكذا إلى جانبك!

(تجلس ناظرة خلفها.)

عند هذا الستار الحريري ... عجبًا! ... ما جلوسك هذا كأنك تحرس شيئًا خلف الستار؟ ... عفوًا! ... هذا لا شأن لي به ... يجب أن أبدأ فأقول لك إني أُدعى إيسمين، وإني باقية معك هنا الليلَ إذا شئتَ، واليوم إذا أردتَ، والشهر إذا رغبتَ، والعام إذا ...

(نرسيس يكاد ينفجر غيظًا، ولا يجدُ الألفاظ.)

الجَوقَة (في النافذة ضاحكات): مرحى! ... مرحى!
نرسيس (للجميع): ألن تنصرِفْنَ عن هذا المكان؟
الجَوقَة: إنما جئنا الليلة لنَمضي بك إلى المهرجان، حيث يُحرَق البخور وتُقدَّم القرابين!
إيسمين: إنَّ أنفه الدقيق لا يُطيق رائحة الدخان، ومزاجه الرقيق لا يحتمل منظر الدماء!
الجَوقَة (لنرسيس): أنتَ الليلة لنا، فَلْتَختَرْ من بيننا!
إيسمين: إنه لا يختار ... أنسيتُنَّ أنه نرسيس؟ ... إنه اعتاد أن يرى الجميلات يحملْنَ حُبَّه كما تحمل شجيرات الكَرْم العناقيد!
الجَوقَة: نرسيس! ... تعالَ معنا، ونحن نعصر لك من عناقيدنا خمرًا تبعث النشوة في رُوحك النائم!
نرسيس: لا أستطيع الذهاب معكُنَّ ... ألَا ترينَ أني في شغلٍ عنكُنَّ؟ ... هل في مقدوري أن أتركها وحدها؟

(يلتفت إلى الستار.)

الجَوقَة: مَن هي؟ ... مَن هي؟

نرسيس: زوجَتُه.

الجَوقَة (في ضحك)**:** إنك أحمق!

إيسمين: أنسيتُنَّ أنه يشبه نرسيس الأساطير؟! ... إنَّ له جماله وحمقه ... إنه ليس لكُنَّ، ولستُنَّ له. (لنرسيس) أهو أيضًا الذي أطلق عليك هذا الاسم؟

الجَوقَة: منذ الصغر ... منذ التقطه وليدًا بين مروج هذه الغابة ... ومع ذلك لم يُفلح في أن يجعل منه أكثر مما نرى وتَرَينَ!

إيسمين: اتركْنَه لي إذن! ... ولا تضيِّعْنَ مع مثله وقتكُنَّ! (لنرسيس) إني أحبك يا نرسيس على الرغم من ذلك! ... أحبك.

الجَوقَة (مرةً أخيرة)**:** ألن تأتي معنا إلى المهرجان؟ ...

إيسمين: أتنتظرْنَ منه الحركة والرغبة؟ ... أنسيتُنَّ أنه زهرةٌ برِّية من أزهار المروج، ينبغي أن تُقتطف اقتطافًا؟

الجَوقَة: فَلْيُختطف إذن اختطافًا!

(يحاولْنَ أن يتسلقْنَ النافذة ليدخلْنَ عليه في الدار.)

نرسيس (صائحًا)**:** ويلاه! ... ويلاه! ... إيسمين! ... إذا كان يعنيكِ أمري فادفعي هذا السيل عني!

الجَوقَة (تقف في ضحك)**:** تخشى على الزهرة أن يُغرقها السيل!

نرسيس: إيسمين! ... إذا كنتِ تطمعين في حُبِّي ...

إيسمين: اخترني إذن!

نرسيس: قد فعلتُ!

الجَوقَة: لقد اختار إيسمين!

إيسمين: نعم، لقد اختارني! ... اذهبْنَ الآن إلى مهرجان فينوس حيث يُحرَق البخور، وتُقدَّم القرابين ... فقد تعثرْنَ على بُغيتكُنَّ هناك!

(جَوقَة الجميلات تنصرف وهي ترقص.)

نرسيس (يلتفت إلى إيسمين الجالسة)**:** وأنتِ؟

إيسمين: أنا؟ ... معك باقية!

نرسيس: أَلَا تذهبين معهن؟
إيسمين: لن أذهب إلا معك.
نرسيس: أنت تعلَمين أني باقٍ ها هنا.
إيسمين: ما يُبقيك ها هنا؟ ... زوجته؟

(تنهض وتدنو من الستار الأبيض.)

نرسيس (صائحًا): ابتعدي! ... ابتعدي!
إيسمين (تتراجع): ألا يُباح لأحدٍ أن يراها؟
نرسيس: لا!
إيسمين: أهو عليها غيور؟
نرسيس: نعم!
إيسمين: جمالها — فيما يُقال — لا يمكن أن يُحلِّق إلى مثاله خيال!

(تعود إلى محاولة الدنوِّ من الستار الأبيض.)

نرسيس: لا تَقرَبي الستار!
إيسمين (ترجع وتُقبِل عليه): صِفْ لي حُسنها!
نرسيس: أنا؟!
إيسمين: صدقْتَ ... لستَ أنت الذي يُطلب إليه ذلك ... اذكر لي على الأقل اسمها!
نرسيس: جالاتيا!
إيسمين (ناظرةً إلى الستار): جالاتيا الجميلة! ... هكذا إذن مقامها دائمًا خلْفَ الحُجُب.
نرسيس: لا ينبغي أن يقَعَ على جسدها الناصع ذرَّةٌ من غبار!
إيسمين (كالمخاطِبة نفسَها): وهذا موكول إليك بالطبع ... ما أبرعك سادنًا كأغلب سَدَنة المعابد! ... يُعنَونَ بذرَّات ترابها، ولا يَرَون قَبَسات رُوحها؟!

(تشرئبُّ بعُنقها لتنظر من فُرجة بالستار.)

نرسيس: ماذا تصنعين؟
إيسمين (دون أن تلتفتَ إليه): ما هذا الشذا الطيِّب؟ ... أهو عطر مما ينثره حوالَيها؟ ... وما هذا البريق العجيب؟ ... أهو قُرط من لؤلؤٍ يزين أذنيها؟ ... وما هذا السرير المفروش،

ذو الطَّنافِس الفاخرة والوسائد المصنوعة من ناعمِ الرِّيش، حتى لا يَجرَح عاجَ خدَّيها! ... وهذه الثياب بالذهب موشَّاة، وبألوان «فينيقيا» مصبوغة! ... وهذه الهدايا الرائعة، من عنبر ومرجان وأصداف لامعة! ...

نرسيس: كيف علمتِ أنَّ كل هذا لها؟

إيسمين: ما أشدَّ حمقَك يا نرسيس الجميل! ... كل الناس في المدينة تتحدث بغرامِ بجماليون!

نرسيس: ماذا يقولون؟

إيسمين: يقولون إنه مجنون!

نرسيس: مجنون؟!

إيسمين: ربما كان لهم بعض العذر! ... ماذا ترى الناس يُسَمُّون رجلًا يصنع بيديه من العاج امرأة، يقَعُ في حبها، ويناجيها ويدلِّلها ويناغيها ويدعوها زوجتَه، ويغمرها بكل ما تصبو إليه المرأة من ترف؟!

نرسيس (يلتفت إلى الباب في قلق): لا تشغليني بالحديث أكثر من ذلك!

إيسمين: إنه ليُسعدني أن أعلم أن حديثي يشغلك ... ويكاد يسرُّك فيما أرى!

نرسيس: أخشى أن يعود فَيرَاكِ هنا!

إيسمين: لن يعود الآن!

نرسيس: كيف عرفتِ هذا أيضًا؟

إيسمين: لقد أبصرتُه عند معبد فينوس، أمام المذبح، يُعدُّ لها القرابين ... هذا الذي لم يحفل قَط يومًا بفينوس وعِيدِها ... لأمرٍ ما يتقرب اليوم إليها.

نرسيس: لأمرٍ ما؟

إيسمين: لعله ينوي أن يسألها شيئًا!

نرسيس: إنه لم يسأل قَط إلهًا غير أبولون!

إيسمين: وهل يُغني أبولون عن فينوس، مانحة الحُب والحياة؟!

نرسيس: وهل تُغني فينوس عن أبولون، مانح الفن والفكر؟!

إيسمين: لا تكفر بفينوس يا نرسيس، وهي التي منحتْك الجمال، وجعلتْك معشوق النساء.

نرسيس: أجل؛ ولكن أبولون لا يريد أن يمنحني شيئًا.

إيسمين: يا للعجب! ... أنت وبجماليون طرفَا نقيض؛ عند أحدكما ما ليس عند الآخر ... لعل هذا ما يربط أحدكما بالآخر!

نرسيس: إنه يقول لي أحيانًا لا تتركْني يا نرسيس؛ فأنت تُكمل ما بي من نقص! ... لكنه يقول أيضًا أحيانًا: إنك يا نرسيس الشطر الجميل العقيم للأشياء ... أنت الصدَفَة البرَّاقة التي لا تحوي اللؤلؤة!

إيسمين: لقد صَدَق ... إني ما عجبتُ قَط لحظةً ... إن مثلك لا يُرى ... لكَمْ أتألم لك!

نرسيس: أحقًّا تتألمين لي يا إيسمين؟

إيسمين: أتشكُّ في ذلك يا نرسيس؟

نرسيس: كلامكِ هذا غريب على أذني.

إيسمين: أعلم ذلك ... لهذا آمنتُ كلَّ الإيمان بأنَّ دواءك في يدي!

نرسيس: ماذا تستطيعين لي؟

إيسمين: أعطني الصدَفَة، أتناولها بين راحتي لأفتحها وأملأها ...

نرسيس: تملئينها ماذا؟

إيسمين: هذا من شأني ... أطعني ودعني أجعلك تبصر وتحيا!

نرسيس (كالمخاطب لنفسه): أُبصر وأحيا؟!

إيسمين: نعم! ... هذه الزهرة المُقفَلة؛ لا بدَّ لها من قطرات الندى لتتفتح.

نرسيس: ومن أين تتساقط هذه القطرات؟

إيسمين: من عينَي امرأة!

نرسيس: لستُ أفهم ما تَعْنين!

إيسمين: انهض واتبعني!

نرسيس: الآن؟

إيسمين: نعم ... الآن.

نرسيس: وجالاتيا؟

إيسمين: دع هذا التمثال ... إنه لن يتحرك ... ولن يهرب!

(تجذبه من يده جذبًا قويًّا.)

نرسيس: مهلًا! ... مهلًا!

إيسمين: هلُمَّ ... هلُمَّ ... أيتها التماثيل الجامدة ... شيئًا من الحياة ... اترك الساعة، دارِ هذا التمثال، واتبعني ... يا نرسيس الجميل!

(تقوده إلى الخارج، وهو ينظر إلى السُّتُر خلفه قلقًا، ثم يغلقان خلفهما الباب، ويذهبان.)

(يتغير ضوء الغابة؛ فقد الْتمع في النافذة نورٌ سماوي، وهبطت من عليائها مركبةُ فينوس تجرُّها بجعتان، وهي فيها مع أبولون ... وقد أمسك بيدها كأنه يقودها، ثم يتركان المركبة ويدخلان في خفة الهواء ورقة النسيم من النافذة إلى داخل الدار.)

فينوس: عجبًا لك يا أبولون! ... ما هذا الخاطر الذي بدا لك؟ ... الليلة عيدي ومهرجاني، وأنت تنتزعني من ساحة معبدي الزاخرة بالجموع لتأتي بي إلى هنا ... إلى دار رجل ... خاوية ... خالية.

أبولون (يشير لها إلى الستار الأبيض)**:** خاوية ... خالية؟! كلَّا يا فينوس! ... انظري خلف هذا الستار!

فينوس: ماذا خلف هذا الستار؟ ... تمثال من عاج!

أبولون: وأي تمثال! تأمَّلي مليًّا يا فينوس!

(يُكشف الستار، فيظهر خلفه التمثال فوق قاعدته.)

فينوس: امرأة!

أبولون: بل ما تَرَين أجمل كثيرًا من امرأة، وأكمل كثيرًا من امرأة!

فينوس (تتأمل التمثال، وتهمس لنفسها في إعجاب)**:** كيف ارتفع إلى هذا ...؟

أبولون (في تفاخر)**:** هنا السِّر!

فينوس: بَشَرٌ هالِك!

أبولون: ومع ذلك ...

فينوس (وعيناها إلى التمثال)**:** أصبْتَ! ... ما اسم هذا الشيء؟ ... جالاتيا؟!

أبولون: هذا الشيء؟! إنك لا تجسُرين أن تسميه امرأة ... أنت أيضًا تَرَين جالاتيا أجمل كثيرًا من امرأة، وأكمل كثيرًا من امرأة!

فينوس (تدنو من التمثال، وكأنها تريد أن تلمسه)**:** جالاتيا!

أبولون: أتلمسينها لتتحققي أن حرارة الحياة لا تجري في شراييها!

فينوس: ماذا ينقصها حقًّا غير الكلام؟!

أبولون: إني أسمع مع ذلك كلامًا خالدًا منطبِعًا على شفتيها الجامدتين!

فينوس: أكاد لا أصدِّق أن هذا العمل يخرج من بين أصابع فانية!

أبولون: هؤلاء البَشَر يا فينوس يمتازون عنا — نحن الآلهة — هذا الامتياز؛ في طاقتهم أحيانًا أن يسمُوا على أنفسهم ... أما نحن فلا نستطيع أن نسمو على أنفسنا ... إنَّ قوة الفن أو مَلَكة الخَلْق عند هؤلاء لقادرة أحيانًا أن تُوجِد مخلوقات جميلة، ليس في إمكاننا — نحن الآلهة — أن نأتي بمِثلها، أو نجاريهم في شأوها ... لأنهم أحرار في السمو، ونحن سجناء في النواميس!

فينوس (كالمخاطبة لنفسها): قوة الفن! ... ما قوة الفن تلك التي يستطيع بها الهالِك أن يخلُق الخالد؟!

أبولون (باسمًا في خُيَلاء): هنا سرُّنا!

فينوس: لستُ أذكر شيئًا عن هذا الرجل!

أبولون: بجماليون هو من عبادي أنا!

فينوس: فهمت ... لهذا لم ألتفت إليه ... لقد حرمتُه هِباتي؛ فعاش كما ترى بعيدًا عن حُب المرأة!

أبولون: لقد حرمتِه، لكن ها هو ذا قد صنع بيديه امرأة، وخلَقَ بنفسه لنفسه الحب!

فينوس: ماذا تعني يا أبولون؟ ... تعني أن جالاتيا هذه ليست إلا تحديًا لي؟ ... وأن هذا الأثر ليس إلا تمثالَ الانتصار عليَّ، يُقيمه في وجهي هذا البَشَر؟ الويل له! ... الويل له!

أبولون: لا تغضبي يا فينوس! ... لستُ أظن هذه الفكرة جالت بخاطره ... هؤلاء البَشَر ينظرون إلينا في أكثر الأحيان نظرةَ التقديس، حتى انتصارُهم علينا لا يشعرون به، وهم يُسمُّونه انتصارًا على أنفسهم!

فينوس (ترمُق التمثال في سخط وازدراء): جالاتيا! ... هه! ... هي بعدُ ليست أكثر من تمثال عاجي!

أبولون: لا تزدريها يا فينوس! ... إنها مع ذلك خليقةٌ بحبه!

فينوس: ماذا تفهم أنت من الحب؟

أبولون: أفهمُ منه ولا ريب غير ما تفهمين منه أنتِ!

فينوس: أبولون، إني ذاهبة ... لديَّ عمل أجْدَى عليَّ ... عبادي ينادُونني في ساحة المهرجان!

أبولون: لا أودُّ أن يقَعَ في نفسكِ شيء من بجماليون ... إنه ...

(يحمل النسيم صوتًا آتيًا من بعيد.)

فينوس: صه ... ما هذا؟!
أبولون: هذا ولا ريب أَحدُ عبادك يناديك، وهو يقدِّم إليكِ القربان!
فينوس (تصغي مليًّا): ليس من عبادي ... لم أسمع هذا الصوت من قبل!
أبولون (يصغي): يُخيَّل إليَّ أنا أني أعرف صاحب هذا الصوت!

(الصوت يدنو، وتتضح ألفاظه.)

الصوت (من بعيد): فينوس! ... فينوس! ... أيتها الإلهة ذات العرش المصنوع من الذهب، المُطعَّم بالياقوت والفيروز! ... يا ابنة جوبيتر العظيمة! ... يا مَن تلبِّين نداء عبادك وأنت تشُقِّين بمركبتك الذهبية سُحب السماء، مركبتك التي تجرُّها بجعتان رشيقتان خفيفتان، تضربان بأجنحتهما اللطيفة أمواج الفضاء ... «فينوس» اسمعي ندائي، وأجيبي دعائي!
فينوس: مَن هذا؟
أبولون: هذا هو بجماليون! ...
فينوس (في دهشة وتِيه): بجماليون! ... عجبًا! ... عجبًا! ... ماذا يريد مني أنا الآن؟
بجماليون (من بعيد): فينوس ... فينوس ... أيتها الجميلة الآمرة على عرش الجمال! ... يا مَن وُلدتِ على زَبَد موجة من أمواج البحر، فمن بين كنوزه الرائعة أنتِ أبهى لؤلؤة! ... ابسِمي لي من شفتيكِ الإلهيتين!
فينوس (في رفق): بجماليون! ... ماذا يريد مني هذا الفنان؟
بجماليون (من بعيد): فينوس! ... فينوس! ... أيتها المُشرِقة بين الإلهات ... يا مَن توقدين بأناملك النورانية في قلوب الناس مصابيح ... أصغي إلى رجائي!
فينوس (في عطف): إني مُصغِية ... ماذا يريد مني بجماليون؟
أبولون (في خبث): عجبًا! ... أرى ثناءه عليكِ قد محا للفور غضبك عليه!
فينوس: إنه رجل يلتمس رعايتي!
أبولون: إنها المرأة دائمًا متيقِّظة في أغوار نفسكِ الإلهية!
فينوس (لا تلتفتُ إليه، وتُولِّي وجهها شطرَ الصوت هامسة): إني مُصغِية يا بجماليون!

بجماليون (من بعيد): فينوس! ... فينوس! ... أيتها السخيَّة بالهِبات! امنحيني هبةً واحدة؛ انفخي حرارة الحياة في تمثال جالاتيا! ... زوجتي جالاتيا العاجية! ... أعطيها حياة يا إلهة الحُب والحياة! ...

فينوس (لأبولون): أسمعتَ ما يريد؟

أبولون (بلا حَراك): سمعتُ!

فينوس: بمَ تشير عليَّ؟

أبولون (فاترًا): ليس من عادتي أن أتدخَّل فيما لا يعنيني!

فينوس: عجبًا؟ ... ما هذا الفتور منك! ... أيسوءُك أن يتوجه إليَّ بجماليون بالدعاء؟

أبولون: إني ذاهب! ... ابْقَي أنتِ هنا إذا شئتِ!

فينوس: لا أودُّ أن يقَعَ في نفسك شيء من بجماليون ... إنه ...

أبولون: إنه يريد الحُب والحياة!

فينوس: ولماذا نأباهما عليه؟ ... سأمنحه ما أراد!

أبولون: امنحيه إذن! ... ولننظر ما سيكون!

فينوس (تتقدم نحو التمثال رافعةً يديها إليه هاتفةً): بأمري أيتها الدماء التي سفكها لي قرابين، اجري قانيةً في هذه الشرايين! ... بأمري أيتها النار التي حرق لي فيها البخور، اجعلي في جسدها الحرارة وفي عينيها النور!

(التمثال يتحرك قليلًا.)

بأمري يا جالاتيا الحية؛ انعسي قليلًا الآن، وانتظري حتى يوقظك بالقبلات زوجك بجماليون!

أبولون: هَلُمِّي بنا ... إنه آتٍ ... إنه يقترب!

فينوس: فَلْنبقَ هنا حتى نرى!

أبولون: ألَا نخرج من الدار ونشاهد من خلف النافذة؟

فينوس: لا بأس ... هلُمَّ.

(فاصلٌ موسيقي.)

(يخرجان في أثنائه من النافذة كما دخلا، ويَبقيَان خلفها يشاهدان ... ثم يُفتح باب الدار، ويدخل بجماليون ونرسيس.)

بجماليون: ألم أوصِكَ أن تبقى ها هنا، حتى أعود؟!
نرسيس: أغرتْني إيسمين!
بجماليون: آه للنساء! ... النساء!
نرسيس: لقد أغلقتُ خلفي الباب!
بجماليون (ينظر إلى الستار): وهذا الستار مَن الذي كشَفَه إذن؟
فينوس (همسًا لأبولون خلف النافذة): يا لحُمْقنا يا أبولون؟ ... لقد نسينا أن نسدل الستار كما كان؟
نرسيس (لبجماليون): النافذة مفتوحة، لا ريب أنه هو الهواء!
أبولون (همسًا لفينوس): أرأيتِ يا فينوس؟ ... هؤلاء البَشَر، يجدُون دائمًا الأسباب التي يعلِّلون بها حماقاتنا! ...
نرسيس (لبجماليون): أأسدل الستار كما كان؟
بجماليون (يجلس شارد اللب): نعم!
نرسيس: ثق أني اتَّبعتُ ما أوصيتني به ... فلن ترى ذرَّةً من تراب على جسدها الناصع!

(نرسيس يسدل الستار على جالاتيا وهو ملتفِتٌ في قلق واستطلاع إلى بجماليون المُطرِق السَّاهِم.)

بجماليون: نعم ...
نرسيس: ماذا بك؟
بجماليون: اذهب الآن إلى شأنك ... إلى المرأة التي أخذتُك من يدها الساعةَ في الطريق ... لا حاجة بي إليك الآن!
نرسيس: ولكنك!
بجماليون: قلت لك اذهب ... اذهب إلى جميلاتك ... لا عمل لك الآن هنا؟
نرسيس: وجهك شاحب.
بجماليون: هو التعب ... من طول الوقوف في ساحة المهرجان!
نرسيس: بل لأمرٍ أشدَّ من ذلك خطرًا!
بجماليون: لا تحاول أن تعرف ما بي!
نرسيس: لماذا؟ ... لمَ لا تخبرني؟

بجماليون: هنالك أشياء لا تستطيع أن تفهمها.

نرسيس: ولكني أستطيع أن أُصغي إليك!

بجماليون: وما نفعُ هذا لي؟

نرسيس: لقد علمتُ أنك تسأل فينوس شيئًا!

بجماليون (يرفع رأسه فجأةً)**:** ما هو؟

نرسيس: لست أدري بعدُ ما هو!

بجماليون (يعود إلى الإطراق)**:** دعني الساعةَ وحدي!

نرسيس: لا يجمُل بي أن أتركك وحدك وأنت على هذه الحال.

بجماليون: وبَعدُ يا نرسيس ... لماذا تُجشِّمني الكلام في غير طائل ... وأنا في حاجة إلى الراحة؟!

نرسيس: أنت تعلم أني لا أودُّ إتعابك ... ولا أحب أن أراك تعِبًا.

بجماليون (كالمخاطِب نفسَه)**:** إني تعِب ... إني حقًّا تعِب ... نعم لقد تعبتُ ... ليس في مقدوري أن أقضي حياتي كلها كذلك!

نرسيس: كذلك؟ ... كيف؟!

بجماليون: أؤنفق عمري كله أخلُق، دون أن أتلقَّى شيئًا؟ ... أفاهِمٌ أنت معنى ذلك؟ ... ما دمتَ تريد أن أخبرك بما أنا فيه ... فلأخبرك ... ها أنا ذا أقول لك إني تعِبٌ ... لا أستطيع أن أمضي في هذه السبيل ... أخلُق وأخلُق وأخلُق ... أخلُق الجمال، وأخلُق الحب، وأخلُق كل ما تطلُبه نفسي! ...

كلَّا لقد تعبتُ ... أريد الآن أن أشعر أن هنالك مَن يخلق لي، ويعطيني، ويَحدَب عليَّ ... ويمنحني!

ما ألذَّ الضعف أحيانًا! ... الضعف! ... هذا الشيء الإنساني الجميل، الذي حُرِمتم إيَّاه أنتم أيتها الآلهة! ... لأول مرة أحسُّ كاهلي ينوء تحت وقْر الخَلق وبرودته ووحدته وقسوته! ... ولأول مرة أرثي للآلهة الذين لا يعرفون — طول الأبد — غير المَنح والعطاء، دون أن يتلقَّوا شيئًا غير دخان من البخور وهباءٍ من الثناء!

نرسيس (بعد لحظة)**:** لستُ أدرك بعدُ ما بك!

بجماليون: قلتُ لك إنك لن تفهم ... إليك عني ... اذهب وأَغلق الباب خلفك!

نرسيس: سأعود مع الصباح!

(يخرج ويغلق خلفه الباب.)

أبولون (همسًا لفينوس): إنه يخشى أن يصير إلهًا؛ فلقد شعَرَ بحقيقتنا التَّعِسة.
فينوس (همسًا): صه! ... جالاتيا تتنهَّد!

(يسمع صوت تنهُّد خلف الستار.)

بجماليون (يرفع رأسه): مَن هنا؟ ... نرسيس؟ ... ألم تذهب بعدُ؟!
جالاتيا (خلف الستار): آه ...
بجماليون (ينهض): نرسيس! ... نرسيس! ... مَن الذي يتنهد هنا؟!

(يتجه إلى الستار، ويدخل خلفه، ثم لا يلبث أن يصيح.)

يا لرأسي المكدود! ... إنه المسُّ ... إنه الخَبَل! ... هذا مستحيل! ... هو الوهم! هو الوهم! ... ومع ذلك ... ترتجفان! ... شفتاها العاجيتان ترتجفان ... ترتجفان ... ترتجفان!
أبولون (همسًا لفينوس): أسرعي! ... أَوحي إليه بالحقيقة، قبل أن يُجنَّ من صدمة الحدث!
فينوس (هامسةً لبجماليون المختفي خلف الستار): إنها حيَّة ... قبِّلها!
بجماليون (خلف الستار كالمخاطِب نفسَه): حيَّة! ... أتُرى فينوس قد استجابت؟ ... نعم... نعم ... فينوس! ... جالاتيا تنبض بالحياة ... جالاتيا زوجتي!
جالاتيا (من خلف الستار): يوقظني بالقبلات زوجي بجماليون؟!
بجماليون (من خلف الستار): نعم ... زوجكِ بجماليون ... شكرًا لفينوس!

(يظهران معًا من خلف الستار.)

جالاتيا (تتمطَّى): آه! ... لقد نمتُ طويلًا! ... لكأني أستيقظ من حلم طويل كاد يُنسيني الحقيقة ... (تنظر حولها) أهذه دارنا؟! ... إنها جميلة ... إني أعرفها!
بجماليون (ناظرًا إليها كالمسحور): شكرًا لفينوس!
جالاتيا (تلقي نظرها إلى النافذة): وهذه النافذة الكبيرة أعرفها أيضًا، لكأنها قلب كبير يتفتح على كنوز من روائع هذه الغابة الساحرة ... ما أجملَ هذا المكان!
بجماليون: شكرًا لفينوس!
جالاتيا (تلتفت إلى بجماليون): لماذا لا تكلِّمني؟ ... لماذا تَحدِجني بهذه النظرات؟ ... ألم تكن تعرفني من قبل؟

بجماليون: كيف لا أعرفكِ؟!

جالاتيا: أنا أيضًا أعرفك ... منذ ... منذ ... دائمًا ... لكن ... يا للعجب! لستُ أذكر متى، ولا أين؟

بجماليون (ينظر إليها مليًّا)**:** جالاتيا!

جالاتيا: بجماليون! ... لا تُطِل إلي النظر هكذا! ... زوجي ... إنك تخيفني! ... إنك تنظر إلي كما لو كنتَ تراني أول مرة!

بجماليون: اجلسي هنا ... إلى جانبي.

(تجلس إلى جانبه ... فيمرُّ بيده على كتفها وذراعها؛ كأنه يجسُّ تمثالًا.)

جالاتيا: عجبًا لك! ... ماذا بك؟ ... ألا تعرف أن لي كتفَين وذراعَين؟

بجماليون (كالمخاطِب نفسَه)**:** كيف لا؟ ... أعرف أن لكِ هاتين الكتفَين، وهاتَين الذراعَين!

جالاتيا: كلِّمني قليلًا كلامًا أفهمه!

بجماليون (وهو يتأمَّلها كالمشدوه)**:** وهذا الفم الذي ينطق ... وهذه العين التي ترنو ... وهذا الحاجب الذي يعلو ... كل ذلك أعرفه! ... وأعرف العناء الذي تكلَّف!

جالاتيا: ماذا تعني يا بجماليون؟

بجماليون (يفيق قليلًا)**:** أصبتِ! ... أصبتِ ... لا ينبغي أن أتكلم هكذا ... معذرةً يا جالاتيا ... إني فرِحٌ بكِ فرِحٌ بلُقياكِ!

جالاتيا: أوَكنتُ غائبة؟

بجماليون: كيف يمكن أن تكوني غائبة؟! ... إنكِ حاضرة دائمًا في ذهني ... حاضرة منذ ... منذ أَمدٍ بعيد!

جالاتيا: شكرًا لك!

بجماليون: أيسرُّك أن أقول لك ذلك؟

جالاتيا: نعم ... قُل لي أيضًا إنك تحبُّني!

بجماليون: آه يا جالاتيا ... لقد أحببتك قبل أن تُوجَدي ... إنَّ حبي لكِ هو الذي أوجدكِ!

جالاتيا: لكأني أسمع صوتك خلْفَ سُحُب ... لستُ أفهم كل عباراتك!

بجماليون: يا للآلهة! ... كيف أجعلك تفهمين عني؟ ... أخبريني أنتِ كيف تشعرين الآن؟

جالاتيا: كيف أشعر الآن؟ ... هذا سؤال غريب ... شعوري هُو هُو ... دائمًا كما كان.
بجماليون: كما كان؟ ... متى؟
جالاتيا: بجماليون! ... لا تسألْني مثلَ هذه الأسئلة ... هلُمَّ بنا!

(تنهض.)

بجماليون (شارد اللُّب)**:** أين؟
جالاتيا: تلهو بعض اللهو.

(تسير في البَهْو ... بخُطًى رشيقة.)

بجماليون (يتأملها في زهوٍ وخُيَلاء)**:** حتى قدمَيها تَخطِران! ... كما قدَّر لهما الذهن الخلَّاق أن تخطِرا؟!
جالاتيا (تلتفت إليه)**:** بجماليون! ... قلتُ لك لا تنظر إليَّ هكذا!
بجماليون: لا تمنعيني من النظر إليكِ والإعجاب بكِ يا حبيبتي!
جالاتيا (في رقة ودلال)**:** أهو الحُب إذن؟!
بجماليون: وماذا تظنِّين غير ذلك؟
جالاتيا: لست أدري ... إنك تخيفني قليلًا!
بجماليون: أنا؟ ... لا تقولي هذا أيتها العزيزة! ... ما الذي يخيفكِ مني؟
جالاتيا: لست أدري ... ربما ...
بجماليون: ربما ماذا؟ ... أخبريني بكل ما يجول في خاطركِ يا حبيبتي!
جالاتيا: نظراتك ... يخيَّل إليَّ أحيانًا أنك تعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي!
بجماليون: لا أيتها العزيزة! ... ليس يعرف عنكِ أكثر مما تعرفين عن نفسك غيرُ ذلك الإله الذي خلقك ... أما أنا ... فكما تَرَينَ الآن ... لستُ لكِ أكثر من زوج وحبيب!
جالاتيا: أخبرني ماذا تعرف عني؟
بجماليون: لستُ أعرف عنكِ إلا أنك أجمل النساءِ طرًّا ... وإني لفخور بك!
جالاتيا (مبتسمة)**:** الآن أحسُّ شيئًا من الطمأنينة إلى جوارك!
بجماليون: أجل ... اطمئني! ... إني لستُ لكِ أكثر من زوج وحبيب! ...
جالاتيا: نعم ... أنت زوجي الذي ينبغي أن أعيش معه دائمًا!
بجماليون: دائمًا!

جالاتيا: أنت زوجي الذي يحميني من الخوف إذا جنَّ الليل!

بجماليون: نعم!

جالاتيا: أنت زوجي الذي ينشط إلى العمل من أجلي إذا طلع النهار!

بجماليون: نعم!

جالاتيا: يا لي من حمقاء! ... إنك زوجي منذ ... منذ أن عرفتُك ... ومع ذلك لم يخطُر لي أن أسألك عن عملك!

بجماليون: عملي؟!

جالاتيا: نعم ... ما عملك يا بجماليون؟

بجماليون: إني ... إني ... أصنع تماثيل.

جالاتيا (تلتفت حولها)**:** لستُ أرى هنا تمثالًا واحدًا.

بجماليون: بِعتُها كلها لأشتري بثمنها ...

جالاتيا (تشير إلى جِيدها وثيابها)**:** هذه الجواهر، والحلي، والأثواب، والعطور، والهدايا، والتُّحف التي تغمرني بها؟ ... إنك لكريم يا زوجي العزيز!

بجماليون: لقد ادَّخرتُ مالًا كثيرًا من أجلكِ!

جالاتيا: أوَلا تصنع تماثيل بعدُ؟

بجماليون: لن أصنع بعدَ الآن!

جالاتيا: لماذا؟

بجماليون: لأني لا أريد ... وربما لأني أيضًا لا أستطيع؛ فلقد وضعتُ كل مواهبي وآمالي ومشاعري في تمثالٍ واحدٍ أخير، لا أحسَب قَط في الإمكان أن أصنع ما يُدانيه في الإبداع ... صنعتُه ثم ألقيتُ من هذا الباب بكل أدوات صناعتي ... فلن أعود أبدًا إليها.

إنَّ أعجوبة الخَلْق لا تحدُث مرتين؛ لأن القلب الذي أذيب فيه بأكمله لا يمكن أن يوضع في خَلقٍ سواه، ما دمتُ لا أملك غير قلبٍ واحد!

جالاتيا (تنظر حولها)**:** وأين هذا التمثال؟ ... لستُ أراه هنا!

بجماليون: لا تسأليني هذا السؤال!

جالاتيا: أبِعتَه إذن؟

بجماليون: أنا؟ ... أنا أبيع دمي، وذهني، وحياتي، ونبوغي، وقلبي، وحبي؟! ... ما هو الثمن الذي يرضيني في ذلك كله؟ ... ومَن ذا يستطيع أن يدفع ما يجب أن أتقاضاه في ذلك كله؟!

جالاتيا: قلبك وحبك؟ ... إنك لتحبه كثيرًا فيما أرى!
بجماليون: وأي حب؟!
جالاتيا: أكثر مني!
بجماليون: لا ... بل ... آه ... ماذا أقول؟ ... وكيف أجيب؟
جالاتيا (في غضب)**:** أكثر مني!
بجماليون (في تضرُّع)**:** جالاتيا! ... لا تضعي الأمور هذا الوضع! ... ولا تُثيري في سماء نفسك الصافية غمامًا. لا تجعلي المرارة تُفسِد من حلاوة هذه اللحظة!
جالاتيا: لن تزعم بعد الآن أني وحدي حبيبتك؟
بجماليون: بل أنتِ كذلك في كل حين يا جالاتيا!
جالاتيا: إني لستُ كل حياتك، وكل قلبك، وكل حبِّك!
بجماليون: بل أنتِ كذلك.
جالاتيا: وذلك التمثال الذي تحدِّثني عنه!
بجماليون: هو ... هو أيضًا كذلك!
جالاتيا: لا ... لستُ أريد أن تُشرك معي شيئًا! ... لست أريد! ... لست أريد! ... لست أريد!
بجماليون (في ضيق)**:** أيتها الآلهة! ... أيتها الآلهة!

(أبولون في النافذة يبسِم ويهمس في أذن فينوس.)

أبولون: أظن الآلهة لا تستطيع إخراجه من هذا المأزق الذي أوقع نفسه فيه!
فينوس (همسًا)**:** لا تسخر منه يا أبولون!

(جالاتيا ترتمي على المقعد باكية.)

جالاتيا: أنا التي صدَّقت الساعة كلامك لي!
بجماليون: أتبكين؟ ... لا ... لا تفعلي ذلك! ... ستُتلفين هذه الأهداب ... إنكِ لا تقدِّرين قيمة هذه الأهداب! ... آه ... إنها لا تعرف ما تصنع!

(يحاول في يأسٍ أن يجفف دموعها.)

جالاتيا (في تمنُّع وتدلُّل الأطفال)**:** ما شأنك أنت بأهدابي ودموعي؟!

بجماليون (في حيرة): ما شأني أنا؟!

جالاتيا (تهزُّ كتفيها): إني أفعل ما يحلو لي.

بجماليون: آه أيتها العزيزة جالاتيا ... أتوسل إليكِ ... أتوسل إليكِ أن تحرصي على كل هُدبة من أهدابكِ، وكل أُنْمُلة من أناملكِ ... كل شيء فيكِ ثمين ... ذراعُكِ ويدُكِ وكتفُكِ وفمُكِ وأنفُكِ وخدُّكِ ... لستُ أحتمل أن أرى خدشًا يُصيبكِ! ... ولا بعوضة تخِزُكِ ... ولا ذرَّة من الغبار تقع على جسمكِ الناصع ... آه ... عفوًا يا جالاتيا ... لست أدري كيف أُفصح عن ... عن ...

جالاتيا (تصفو وتُشرِق): عن حبِّك لي؟

بجماليون: أجل! ... أجل هو ذاك يا حبيبتي!

جالاتيا (في دلال): نعم، ادعُني حبيبتَك!

بجماليون: دائمًا! ...

جالاتيا: ضُمَّني إلى صدرك.

(بجماليون يسرع ويضمُّها طويلًا.)

أبولون (يبسم قليلًا، ويهمس في أذن فينوس): أظن من سلامة الذوق أن نتركهما الآن في خَلْوة!

فينوس (هامسةً لأبولون في خُيَلاء، وهي تتحرك للانصراف): ومن سلامة الذوق أيضًا، أن تعترف بأني انتصرت!

الفصل الثاني

(الغابة مُتَّشِحة بأضواء النهار الشاحبة ساعةَ الأصيل، وقد جلس بجماليون في بَهْو داره مُطرِقًا كئيبًا، غير مُلتفِتٍ إلى جَوقَة الراقصات التسع وهُنَّ يُقْبِلن من جوف الغابة مقتربات من النافذة في رقصٍ هادئٍ بطيء.)

* * *

الجَوقَة (تهمس عند النافذة): بجماليون الحزين!

(بجماليون لا يتحرك، ولا يَنبِس.)

الجَوقَة: بجماليون المسكين! ... أخبِرْنا متى كان هروبها؟!
بجماليون (يرفع رأسه صائحًا): ، اغْرُبنَ عني!
الجَوقَة: إنَّا نريد لك خيرًا؛ لأنك عرفتَ الحُب ... سنبحث لك عنها!
بجماليون: لا أريد أن يبحث عنها أحد!
الجَوقَة: لا تلعنها، ولا تمقتها يا بجماليون!
بجماليون (كالمخاطِب نفسَه): ليتني أستطيع ذلك!
الجَوقَة: تذكَّر اللحظات التي كنتَ تقضيها وحيدًا فوق هذا العشب ترقُب السماء وقد تدثرت بردائها المخملي القاتم، ونثرت على صدرها حُليَّها ولآلئَها في حراسة الليل الساجي النائم؛ لَكأنك كنتَ تحاول أن تختلس من السماء شيئًا، وكنَّا نحن نرقص على مقربة منك ... وكنَّا أحيانًا نُحيط بك دون أن تشعر بنا ... لقد كنتَ وقتئذٍ تفكر في صُنعها.
بجماليون (في إطراق): وا أسفاه!

(الباب يطرق طرقًا خفيفًا، ثم يفتح وتظهر إيسمين.)

إيسمين: «بجماليون»! ... أحمل إليك خبرًا ... أُفضي به إليك وحدك!
الجَوقَة: إنَّا ذاهبات نرقص بعيدًا!

(تبتعد الجَوقَة في رقصتها الهادئة البطيئة حتى تختفي ... وتدنو «إيسمين» من «بجماليون».)

إيسمين: عرفتُ مقرَّها! ... مقرَّهما ... لقد هرَبتْ معه ... ألا تعلم؟
بجماليون (بلا حَرَاك)**:** وكيف أستطيع أن أجهل ذلك؟
إيسمين: كان يجدر بي أن أتوقَّع هذا الأمر!
بجماليون (يرفع رأسه ناظرًا إليها)**:** وماذا يعنيكِ أنتِ منه؟
إيسمين: «نرسيس»، هو مِلكي كما هي مِلكك!
بجماليون: هي ليست الآن مِلكي!
إيسمين: لا تَقُل هذا يا بجماليون ... قُم معي!
بجماليون: إلى أين؟
إيسمين: إليهما!
بجماليون: ماذا نصنع بهما؟!
إيسمين: لا تحرج صدري يا بجماليون ... إنهما في مكانٍ غير ناءٍ، أتعرف ذلك الغدير في غابة السرور؟ ... هنالك كوخٌ على حافة الماء ... (كالمخاطِبة لنفسها) آه للشقي ... لقد مضى بها إلى المكان الذي أَريتُه إيَّاه!
بجماليون: قلت لكِ، لم يَعُد لي بها شأن.
إيسمين: ليس في إمكانك التخلِّي عن مصيرها.
بجماليون: مصيرها الآن بيدها.
إيسمين: جالاتيا الجميلة! ... تلك الآية التي وضعتَ فيها كل ما اكتنزتَ من فن وحكمة وتجارب! ... تحفة التُّحف التي أنتجَتْها عبقريتك الخلَّاقة، بَعد جهادِ الليالي والأعوام ... لا ... لن تستطيع ... لن تستطيع أن تعيش بغيرها!
بجماليون (بعد لحظة)**:** لا أريد أن أسمع شيئًا في أمرها.
إيسمين (بعد صمت)**:** إني أفهم كل ما بك الآن ... ومع ذلك ... أنا مُوقِنة أنك غير حاقد عليها ولا ناقم!
بجماليون: لو أن هذا في الإمكان!

إيسمين: إنك تحبُّها.

بجماليون: يا لَكِ من حمقاء!

إيسمين: لستُ أعني ذلك الحب! ... أنا أيضًا كنت أصنع من نرسيس كائنًا آخر، بمادةٍ من عندي؛ لهذا لا أستطيع التخلِّي عنه؛ فهو يحمل جزءًا مني ... لعله خير أجزاء نفسي!

بجماليون: بل هو خيرها جميعًا!

إيسمين: أجل يا بجماليون ... هو كما تقول! ... لذلك لست أشعر أنا أيضًا أني حاقدة عليه أو ناقمة.

بجماليون: كيف نَمْقُت عملنا الذي صنعناه بخير مَلَكاتنا؟!

إيسمين: كل عجبي هو لانصراف هذه المخلوقات عن خالِقيها!

بجماليون: وفيمَ العجب؟ ... هل ارتفع مخلوق يومًا إلى فَهْم خالقه؟!

إيسمين: عبثًا حاولتُ أن أفتح قلب نرسيس المغلق!

بجماليون: أنا لم أحاول؛ لأني أدركت أنها لن تفهم عنِّي ما أقول ... كان ينبغي دائمًا أن أحادثها بما تستطيع هي أن تفهم!

إيسمين: حسنًا فعلتَ!

بجماليون: إني الآن أُدرك وسائل الإله العظيم جوبيتر، عندما كان يحب فتياتٍ من المخلوقات ... لقد كان يتَّخذ لكل فتاة الصورة التي تفهمها، وتروق في عينيها! ... هكذا اتَّخذ شكل بجعة جميلة للرقيقة «ليدا»، واتَّخذ شكل ثور قويٍّ للحسناء «أوروبا»، واتَّخذ شكل قطعٍ ذهبية للفاتنة «دانابيه» ... بهذا استطاع أن يملك مشاعرهن! ... الجمال، والقوة، والمال ... آه ... حتى الآلهة ينبغي لها أن تتذرَّع بهذه الأشياء للوصول إلى قلب المرأة!

إيسمين: أنت الذي تمنَّى لآيته وتحفته أن تنقلب امرأة ... ومضيتَ إلى معبد فينوس تدعوها وتسألها!

بجماليون (صائحًا): لا تذكِّريني بفينوس! ... لا تذكِّريني بفينوس!

إيسمين: ماذا دهاك؟!

بجماليون (ثائرًا): هي سبب البلاء ... فينوس هي سبب البلاء ... لقد كنت سعيدًا ... لقد كانت معي جالاتيا هنا دائمًا ... جالاتيا الأخرى ... جالاتيا الأولى ... هنا أمامي خلف هذا الستار ... كأنها إلهة خلف السُّحُب! ... نعم، لقد كانت إلهة؛ لأني كذلك صنعتُها ... لقد أخرجتُها من رأسي، كما أخرج الإله جوبيتر من رأسه الإلهة منيرفا ... لقد كنت أراها وتراني كلَّ يوم، فيُخيَّل إليَّ أنها تفهم كل ما يجول برأسي وقلبي؛ لأنها منهما كُوِّرت

وصُوِّرت ... إلَهَانِ في سماءٍ واحدة يعيشان ... هكذا كنَّا ... ولم يكن أحد يستطيع أن يفرِّق بيننا ... آه يا فينوس ... انظري ماذا فعلتِ أنتِ بي وبجالاتيا؟ ... لقد وضعتِ أنتِ في آية الآيات رُوحَ هرَّة؛ أي رُوح امرأة، ذلك الرُّوح المَلُول الطَّرف! ... لقد جعلتِ هذا الأثر الرائع ينقلب إلى كائنٍ تافه ... لقد صيرتِها امرأةً حمقاء تهرُب مع فتًى أحمق!

إيسمين: حَسْبك يا بجماليون! ... لا تُهِن الآلهة!

بجماليون: دعيني أقُل لهم ما أريد، دعيني أصارح هؤلاء الآلهة بالحقيقة! ... لقد صنعتُ أنا الجمال فأهانوه هم بهذا الحُمق الذي نفخوه فيه! ... كل ما في جالاتيا من روعةٍ وبهاءٍ هو منِّي أنا ... وكل ما فيها من سخفٍ وهراء هو منكم أنتم يا سُكَّان أولمب.

إيسمين: بجماليون! ... أخشى عليك غضب فينوس!

بجماليون (ينهض في المكان ثائرًا صائحًا منفجرًا)**:** اسكتي أيتها الحمقاء! ... لستُ أخشى فينوس! ... أين هي فينوس؟ ... أودُّ أن أرى وجهها الآن! ... هل احمرَّ خجلًا هذا الوجه وهو يرى هذه الهزيمة الشنعاء؟!

اعترفي يا فينوس أني انتصرت عليكِ ... اعترفي أنَّ التحفة التي خرجتْ من يدي مَثَلًا للكمال في الخَلْق والإبداع قد شابها النقص بلمسةٍ من يديكِ!

إيسمين (في خوف)**:** بجماليون! ... إني ذاهبة.

بجماليون: فينوس! ... أين تلك التي سألتُها الحُب فأعطتني الشقاء! ... لقد حسِبتُها تستطيع أن تمنحني شيئًا ... لقد كان الحُب في يدي دون أن أشعر ... اتركوني أيتها الآلهة لَلَكاتي ... فلَسْتُ في حاجةٍ إليكم!

إيسمين: لا تَقُل ذلك يا بجماليون؟ ... إني ذاهبة!

(تخرج سريعًا.)

بجماليون: آه ... رُدُّوا عليَّ عملي! ... رُدُّوا عليَّ جالاتيا كما كانت ... تمثالًا من عاج! أيتها الآلهة ... دعوني وشأني ... لنفسي ومخلوقاتِ نفسي! ... ما أنا إلا صِنْوُكم ونظيركم، بل إني عليكم سَمَوتُ، وعلى قدرتكم فُقْتُ؛ فأنتم ما فعلتم غير أن أفسدتم الجمال الذي أقمتُ؟! ... أفسدتم جمالي الخالد! ... أفسدتم جمالي الخالد!

(يرتمي على الفراش باكيًا وحيدًا.)

(تضيء النافذة بالنور السماوي، وتهبط مركبة فينوس في الغابة ... ثم يظهر أبولون وفينوس وهما يدنوان من النافذة يُطلَّان منها إلى داخل الدار!)

أبولون: ينبغي أن نعترف أنه على حق!

فينوس (في غضب)**:** صه!

أبولون (باسمًا)**:** أريني وجهكِ يا فينوس! ... هل احمرَّ خجلًا حقيقةً؟!

فينوس: هذا رجلٌ غير جدير بهِبَاتي!

أبولون: هو حقًّا غير جدير بِهِبَاتكِ! ... انظري إلى ما صنعتْ به هِبَاتكِ! ... يا له من مسكين!

فينوس: أبولون! ... من العار أن يسخر أحدنا من الآخر — نحن الآلهةَ الخالدين — من أجل بَشَر فانٍ!

أبولون: أوَلَا تَرَين من العار أن نُمسي سخريةَ بَشَرٍ فانٍ ... نحن الآلهةَ الخالدين؟!

فينوس: لست أرى في الأمر ما يدعو إلى هذا القول!

أبولون: وبماذا تصفين هذه الهزيمة؟

فينوس: أنت أيضًا تسمِّيها هزيمة؟!

أبولون: عجبًا ... هل تجِدين لها اسمًا آخر؟!

فينوس: أصْغِ إليَّ يا أبولون!

أبولون: ها أنَا ذا مُصغٍ يا فينوس!

فينوس: إني أعرف تحدِّيك القديم لي ... أصْغِ إليَّ بغَير تحدٍّ، وبغَير تحامُل، وبغَير تشَفٍّ، وبغَير تهكُّم! ... ألم يسألني هذا الرجل لتمثاله الحياة؟ ... لقد منحتُ تمثاله الحياة!

أبولون: أهذه هي الحياة التي تستطيعين أن تمنحيها؟!

إنَّ الحياة الساكنة التي وضَعَها هو في العاج كانت أنبل وأرفع وأقوى من تلك الحياة المتحركة الهزيلة الشاحبة التي وضعْتِها أنتِ في تمثاله! ... هذا ما يرى ... ومن حقِّه، ولا ريب، أن يقدِّر هذا التقدير.

فينوس: وأنت أيضًا ترى ذلك؟

أبولون: مع الأسف والاعتذار!

فينوس: هنالك أشياء لا تستطيع أن تراها ... لا أنت، ولا هو!

أبولون: لن تنكري على الأقل أننا نستطيع أن نرى الشيء الجميل!

فينوس: وماذا تريدان منِّي الآن؟!

أبولون: أولًا اعترفي أن عبقريته قد انتصرت ... ثم اسحبي بعد ذلك ما وضعتِ في عمله من عناصر النقص والسخف باسم الحياة ... رُدِّي عليه — كما طلب — تمثاله ساكنًا كما كان ... نابضًا كما كان بحياة الفن وحدها!

فينوس: آه! ... أيَّة مَذلَّةٍ لإله أن يحني رأسه أمام بَشَر! ... سأفعل ما أراد ... ولكن ...

أبولون: ولكن ...؟

فينوس: ولكن الحرب بيننا لم تنتهِ بعدُ!

أبولون (يلتفت إلى بجماليون المنبطِح على فراشه)**:** إنه نائم ... انظري ... إنه تحرَّك قليلًا ... إنه يتقلَّب ... صوتُكِ، ولا ريب، يتمثل له الساعة في هيئة أحلامٍ مزعجة!

فينوس (في غيظٍ كظيم)**:** وصوتك أنت؟

أبولون: صوت قيثارتي هو الذي تمثَّل له دائمًا في صورة أحلامٍ جميلة ... رَعَتْ ورَوتْ كلَّ عناصر نبوغه!

فينوس (في ضحكةِ استخفاف)**:** قيثارتك؟!

أبولون: نعم، قيثارتي!

فينوس: لماذا أتعرَّض وحدي لتحدِّي مثل هذا الرجل؟! ... لِمَ لا تأتي لنجدتي يا صاحب القيثارة الساحرة!

أبولون: نجدتكِ؟!

فينوس: ألا ترى من واجبنا التعاون على إنقاذ سمعة الآلهة؟!

أبولون: لا تمكري مَكْرَ النساء! ... ولا تحاولي الزجَّ بي معكِ ... لقد قلت لكِ إني لا أحب التدخل في شئونكِ الخاصة!

فينوس: لقد زعمتَ أني فشلتُ وأفسدتُ ... فلماذا لا تتقدم أنت لإصلاح الأمر؟ ... لقد أعطيتُ أنا التمثال حياةً تقولون إنها قبيحةٌ تافهة سخيفة؛ فمَن غيرك يا أبولون يستطيع أن يجعل هذه الحياة جميلةً نبيلة رائعة!

أبولون: إنه لم يطلب إليَّ ذلك!

فينوس: إنه — ولا ريب — يفضِّل ذلك.

أبولون: كلَّا ... رُدِّي جالاتيا إلى عاج في بساطة كما طلب ... ولا تعقِّدي الأمور!

فينوس: ولماذا لا تحاول أن تُكمل ما في حياتها من نقص؟

أبولون: أفٍّ يا فينوس! ... ما دخلي أنا؟

فينوس: إنك خائف!

أبولون: أنا؟ ... وممَّ أخاف؟ ... وليس أيسر عليَّ من ذلك.

فينوس: إذن فافعل.

أبولون: ليست معي قيثارتي.

فينوس: إنها في مركبتي ... انتظر حتى آتيك بها.

(تتجه إلى النافذة، وتمدُّ يدَيها إلى المركبة.)

أبولون (مخاطِبًا نفسَه)**:** أفٍّ لها من ثرثارة! ... يعزُّ عليها أن تترك الآخرين في راحة!
فينوس (تعود بالقيثارة)**:** بمَ تهمس؟
أبولون: لا شيء.
فينوس: هاكَ القيثارة!
أبولون (يتناول منها قيثارته)**:** أين هي الآن جالاتيا هذه؟!
فينوس: إنها على مقربة من هنا ... في كوخ بغابة السَّرْو أمام الغدير مع ذلك الفتى ... نرسيس!
أبولون: يا لها من حمقاء! ... ككل النساء.
فينوس: اصنع أعجوبتك!
أبولون (يضرب على القيثارة)**:**

نغماتي عليها رفيع الكلام،
ونبيل المعاني ورائع الأحلام!
همساتي تفتَّحي لها زهرات،
بأريج الفن والفكر عطرات!
بأمري أسرعي إلى هذا المكان،
وبقبلاتك أيقظي زوجك بجماليون!

فينوس: أتراها الآن عائدة؟!
أبولون: على أجنحة النسيم طائرة!
فينوس: سأبقى لأرى ما يكون؟!
أبولون: فَلْنُشاهد من خلف النافذة!

(فاصلٌ موسيقي.)

(يخرجان من النافذة كما دخلا، ويقفان خلفها يشاهدان ... وعندئذٍ يُفتح باب الدار في رفق، وتظهر جالاتيا كالخجِلة ... وتتقدم وهي تبحث بعينيها في أنحاء المكان، حتى يقع نظرها على بجماليون.)

جالاتيا (في همسٍ عذب)**:** بجماليون!

(بجماليون يتحرك قليلًا.)

جالاتيا (تنحني عليه وتقبِّله)**:** بجماليون!
بجماليون (يفتح عينيه)**:** أنتِ؟!
جالاتيا: نعم، أنا! ... أيزعجك أن أوقظك بقبلاتي؟!
بجماليون: متى عُدتِ؟
جالاتيا: الساعة!
بجماليون: ولماذا عُدتِ؟
جالاتيا: لست أدري ... غير أنه ينبغي لي أن أبقى إلى جانبك يا بجماليون العظيم!
بجماليون (وهو يتأملها مليًّا)**:** بجماليون العظيم!
جالاتيا: نعم ... أتُدهش لهذا؟ ... ألا تعرف نفسك؟
بجماليون: قليلًا.
جالاتيا: أمَّا أنا فأعرفك كثيرًا ... أي موسيقى تملأ نفسي الآن بأشياء لم أكن أُدركها قبل الآن! ... إنك ناقم عليَّ! ... أرى أنك ساخط عليَّ!
بجماليون: لم أسخط عليكِ لحظة قَط، ولم أنقم.
جالاتيا: حقًّا؟
بجماليون: ثِقي بذلك.
جالاتيا: ابتسِم إذن!
بجماليون: ليس الآن!
جالاتيا: إنك لست فرِحًا بعودتي!
بجماليون: ليس للسبب الذي قد يبدو لكِ.
جالاتيا: لماذا لا تصارحني بكل ما في نفسك يا بجماليون؟ ... إني اليوم لستُ مثلي بالأمس ... إني الآن جديرة أن تفتح لي نفسك فأُطالع كل ما سُطِّر فيها ... لأني الآن أعرف مَن أنت! ...
بجماليون: ماذا تعرفين؟! ... هو بالطبع نرسيس الذي أخبرتكِ!
جالاتيا: لا تذكِّرني الساعة بنرسيس هذا!
بجماليون: لماذا؟

جالاتيا: ذاك عهدٌ انقضى ... لقد كنتُ طائشةً حمقاء!

بجماليون: والآن؟

جالاتيا: لا.

بجماليون: أواثقة أنتِ من ذلك؟

جالاتيا: إني الآن أرى أشياء يُدهشني ويُدهشك أن أراها بمثل هذه السرعة!

بجماليون: لستُ أنكر أنه تُدهشني الساعة أشياء كثيرة!

جالاتيا: ومع ذلك هي حقيقة يجب أن نصدِّقها!

بجماليون: ليس بهذه السرعة يا جالاتيا ... خصوصًا فيما يتعلق بي ... فَلْنصبر على الأقل حتى يذهب عني أثر الحلم الذي رأيت في النوم منذ لحظة!

جالاتيا: أرأيتَ حُلمًا؟

بجماليون: مزعجًا! ... بجعتين ... تأكل إحداهما من قلبي ... والأخرى من كبدي.

(أبولون في النافذة يلتفت إلى فينوس.)

أبولون (باسمًا هامسًا): بجعتَاكِ!

فينوس (هامسةً غاضبة): صه.

جالاتيا (لبجماليون في ألمٍ): آه أيها العزيز بجماليون! ... أَلَمْ أقلْ لك ينبغي لي أن أبقى إلى جانبك دائمًا؟!

بجماليون: ولكن ... يُخيَّل إليَّ أن البجعتين — لحسن الحظ — لم تتناولا من قلبي وكبدي شيئًا كثيرًا!

جالاتيا: لماذا؟!

بجماليون: لعلَّهما تكرهان الطعامَ الحارَّ!

جالاتيا (باسمةً): آه يا بجماليون الظريف!

بجماليون: أو لعلَّهما! ...

جالاتيا: ماذا؟

بجماليون: خُيِّل إليَّ أيضًا أني سمعت قيثارة ... ما كادت تنطلق أنغامها حتى نفرت البجعتان وانطلقتا بعيدًا ... بعيدًا.

جالاتيا (كالحالمة): أنغام قيثارة!

بجماليون (يلتفت إليها): نعم ... لماذا تغيَّر وجهكِ؟

جالاتيا: لا شيء ... لا شيء!

بجماليون: ولكني لست أخفي عنكِ أنَّ ما وجدتُ منكِ عند اليقظة كان أعجب من الحلم!

جالاتيا (حالمةً)**:** مني ... حقًّا ... لستُ أدري ...

بجماليون: لستِ تدرين ماذا يا جالاتيا؟

جالاتيا: حياتي ... أين الحلم فيها، وأين الحقيقة؟!

بجماليون: حياتكِ ليست بالطول الذي يستحقُّ التفكير فيها بعدُ.

جالاتيا: أحسُّ مع ذلك أنها طويلة ... أنسيتَ مَن أنا؟ ... يبدو لي أنك نسيتَ أنَّا عِشْنا معًا طويلًا!

بجماليون: نعم ... عِشْنا معًا.

جالاتيا: كم من الأعوام؟

بجماليون: لستُ أذكُر ... أتذكرين أنتِ؟!

جالاتيا: آه ... أيها القاسي!

(تذهب إلى قرب الستار مفكِّرة، وتجلس في إهمالٍ على قاعدة التمثال مُطرِقة.)

بجماليون: ألا تجِدِين دائمًا غير هذا المقعد الرخامي؟!

جالاتيا: لطالما جلستُ هكذا ... وكنتَ ترنو إليَّ دائمًا بنظراتك العميقة ... ولكنك لا تذكُر الآن شيئًا!

بجماليون: لا تتألمي كثيرًا لضعف ذاكرتي!

جالاتيا: لا لهذا ... بل لأني لا أعرف ماذا أصنع بعد الآن ... وأنت تعاملني هكذا ... إنك لم تخبرني أنك تألمتَ عندما أخذت البجعتان تلك القطعة من ...

بجماليون: وماذا يعنيكِ من ذلك؟ ... أحسَبكِ لن تزعمي أنكِ أنتِ تلك القطعة.

جالاتيا: كنت أرجو أن تقول: إني كذلك!

بجماليون: ما دمتِ تريدين أن أقول لكِ ذلك ... فَلْأَقُل لكِ ذلك: أنتِ تلك القطعة ... منها تشكَّلتِ في صورةِ امرأة!

جالاتيا: نعم ... أحسُّ الآن أنك لا تكذب!

بجماليون: عجبًا ... كيف تحسِّين ذلك؟

جالاتيا: أمِن العسير أن أشعر أني جزءٌ منك؟!

بجماليون: أهذا كل ما تشعرين به؟

جالاتيا: عندي غير هذا ... ولكن ...

بجماليون: افتحي لي كل نفسكِ يا جالاتيا لأطالع كل ما سُطِّر فيها!

جالاتيا: لكأني بك لا تعرف بعدُ كلَّ خفايا نفسي ... إنك لتسألني ما سألتُك منذ لحظة ... ولكنك لم تجبني، وأسدلتَ دوني ستار الصمت كما يفعل الآلهة مع البشر! ... أجل ... ألا تراه عجيبًا أن يطلب الآلهة إلى مخلوقاتهم الإفصاحَ عمَّا في النفوس، والكشفَ عمَّا في الصدور؟ ... فإذا حاولتْ هذه المخلوقات أن تسأل آلهتها عن أنفسهم؛ سكتت الآلهة، ولم يُحيروا جوابًا.

بجماليون: لعلَّهم لا يعرفون.

جالاتيا: أتظنُّ ذلك؟

بجماليون: أمِن الضروري أن تعرف الصفحات ما في صدرها من كلمات؟! إنما على البَشَر أن يقرءوا، وأن يفهموا، وأن يفسِّروا ... كلٌّ على قَدْر فطنته، وتفكيره، وإدراكه!

جالاتيا: كنتُ أحسَب الآلهة يعرفون — على الأقل — مثلما نعرف.

بجماليون: أتريدين لهم أن يعرفوا القراءة والكتابة؟

جالاتيا: بجماليون! ... أيها العزيز بجماليون! ... إنك تحاول منذ عُدْتُ أن تخاطبني في إهمالٍ وخفَّةٍ وقلةِ احتفال ... إذا كنتَ تريد الاقتصاص منِّي فثِقْ أني قد استوفيتُ العقاب!

بجماليون: أنا أعاقبكِ على أمرٍ لم تقترفه يداكِ اللطيفتان؟! ... إني أعرف المسئول، وقد أعلنتُه برأيي فيه منذ قليل ... ولعلَّه آثر إصلاح عمله وإتقان صناعته! ... ومع ذلك هذا مستحيل ... عهدي به غير قدير على أكثرَ مما صنع! ... كيف حدث فيكِ إذن هذا التغيير السريع؟!

جالاتيا: للمرة الأولى منذ عُدْتُ لا أفهم ما تقول!

بجماليون: معذرةً يا جالاتيا ... لا تُلقي بالًا إلى قولي ... ذاك حساب بيني وبين ...

(أبولون وفينوس يتبادلان نظرةً ذات مغزًى.)

جالاتيا (تدنو من بجماليون)**:** آه يا بجماليون!

بجماليون (رقيقًا)**:** ماذا بكِ أيتها العزيزة جالاتيا؟!

جالاتيا (تمرُّ بيدها مرًّا لطيفًا على صدره)**:** لو استطعتُ أن أقرأ كل ما في صدر هذه الصفحة من كلمات!

بجماليون: يكفيكِ يا جالاتيا أن تقرئي ما في صدركِ أنتِ!

جالاتيا: أحقًّا؟

بجماليون: ألم تقولي الساعة أنكِ تشعرين بأنكِ جزءٌ منِّي؟! ... ارجعي إلى نفسكِ أنتِ دائمًا وطالعيها تعلَمي الشيء الكثير عني!

جالاتيا: في نفسي أشياء جميلةٌ نبيلةٌ ... في نفسي أنك إله!

بجماليون: أنا؟!

جالاتيا: يُخيَّل إليَّ أنك خلقتني، وصنعتني، وجعلتني كما تتخيَّل وتشتهي ... هذا شعور كالحقيقة الناصعة، يصعد أحيانًا من أعماق نفسي كما يصعد النهار من جوف الليل! ... يُخيَّل إليَّ أنك استلقيتَ ذات أمسيةٍ مُقمِرة، على العشب الأخضر النَّضِر، في هذه الغابة الناعسة الهامسة ... فحلمتَ حُلمًا بديعًا ... كنتُ أنا هذا الحلم ... ما أنا إلا حُلمك ... لهذا يخامرني أحيانًا ذلك الإحساس الغامض عن ماضي حياتي ... فأتساءل: أأنا حُلمٌ أم يقظة؟ ... أأنا حُلمك دائمًا يا بجماليون أم يقظتك؟

بجماليون: خلقتُكِ؟ ... من أي شيء خلقتُكِ؟!

جالاتيا: من أشعةِ فكرك المتألق اللامع! ... من جواهرِ ذهنك الوهَّاج الساطع! ... من حرارةِ قلبك التي يضطرم بها قلبي ... من كلِّ تلك المشاعر الجميلة النبيلة التي تعجُّ بها نفسي! ... نعم ... نعم ... ما منبع كل هذا غيرك أنت! ... أنت يا زوجي بجماليون!

بجماليون: أمِن هذا فقط صنعتُكِ؟!

جالاتيا: أوَكُلُّ هذا قليل؟ ... هنالك مع ذلك أسطورةٌ قد تبسِم لها إذا سمعتَها.

بجماليون: أسطورة؟!

جالاتيا (باسمةً): قيل لي إنك صنعتني من ... عاج!

بجماليون (باسمًا): مادة نفيسة كما تَرَين!

جالاتيا: وأنَّ فينوس نفخت الحياة في كياني ... فصِرتُ كما تراني!

بجماليون: لم تصدِّقي بالطبع هذا الهراء؟!

جالاتيا: لستُ أدري ... لمَ لا؟ ... إني أشعر حقًّا أنك إلهي، وأني مخلوقتك ... على أي وجهٍ حدثَ ذلك؟ ... وبأيَّة مادة؟ ... هذا ما لا ينبغي أن أُعنى به كثيرًا ... لعل هذا يعنيك أنت ... وما دمتَ لا تريد أن تصارحني بشيء ... وما دمتَ تريد أن أكشف أنا كل شيء لنفسي بنفسي ... فَلْأقف إذن عند هذا الحد!

بجماليون: نعم ... يحسُن أن تقفي عند هذا الحد!

جالاتيا: ومع ذلك ... تستطيع أن تخبرني الآن دون أن تخشى شيئًا!

بجماليون: أعلم ... أعلم أنكِ الآن امرأةٌ أخرى!

جالاتيا: لست أنسى أنك البارحة كنتَ تخشى أن تخاطبني بما لا أفهم؛ لأني كنتُ أخاف ذلك ... نعم! ... لستُ أكتمك أني كنتُ أخاف منك!

بجماليون: والآن؟

جالاتيا: لا ... لست أخافك؛ لأني أحبك ... وأحبك لأني عرفتُك وعرفتُ نفسي بعض المعرفة!

بجماليون (ينظر إليها في عجبٍ وإعجابٍ، ويهمس)**:** أيتها الآلهة! ... أيتها الآلهة!

جالاتيا: لماذا تنظر إليَّ هكذا يا بجماليون!

بجماليون: أصغي إليَّ مليًّا يا جالاتيا! ... أقول لكِ أول مرة قولًا يصعد من أعماق قلبي كما تصعد الشمس الحارَّة المضيئة ... وإنكِ لتُحسِّين مثله، ولا ريب، في أعماق قلبكِ: أنتِ يا جالاتيا جديرةٌ بي ... وبحبي!

جالاتيا (تركع، وتضع رأسها في حِجره)**:** معبودي بجماليون! ... معبودي بجماليون!

(بجماليون ينحني فيقبِّلها.)

(أبولون يُمسك بقيثارته، ويعزف.)

جالاتيا (ترفع رأسها)**:** نفسي تجيش بموسيقى رائعة!

بجماليون (مُصغيًا)**:** نعم! ... نعم!

جالاتيا: أتسمعها؟

بجماليون: إنها تذكِّرني باللحظة التي حَلَمتُ بكِ فيها!

جالاتيا: لكأنَّها أنغامُ قيثارة!

بجماليون: آه ... عرفتُ الآن ... فهمتُ كل شيء ... أدركتُ كل شيء!

جالاتيا: ماذا؟ ... ماذا يا بجماليون؟

بجماليون: شكرًا لك يا أبولون! ... شكرًا لك يا أبولون!

(فينوس يرتسم على وجهها الغيظ.)

فينوس (تجذب ذراع أبولون في عنف)**:** هلُمَّ بنا ... هلُمَّ بنا ... قد أضعنا وقتًا طويلًا ها هنا!

أبولون (باسمًا)**:** ألا تَرَين من الإنصاف أن تعترفي بأني انتصرتُ؟!

الفصل الثالث

(الغابة تحت ضوء القمر في شطره الأخير، وقد جلس في بَهْو الدار نرسيس وهو مُطرِقٌ مهموم، وأمامه إيسمين ... وهما غير حافلَين بجَوقَة الراقصات التسع وهنَّ يتضاحكْنَ ويلغطْنَ ... وقد طفِقَ بعضُهن يتأرجح على الأغصان المدلَّاة ... والبعض يرقص رقصًا سريع الإيقاع مَرِح النغم.)

* * *

إيسمين: الأمر لا يحتاج إلى كل هذا الإطراق والتفكير؟

نرسيس (يرفع رأسه، ويَحْدِجُها بنَظَره)**:** إيسمين!

إيسمين: أجل ... حادِثْني! ... إنَّ الحديث قد يُسرِّي عنك!

نرسيس (يلتفت إلى النافذة)**:** ما كل هذا الصياح، والضحك، والضجيج؟!

إيسمين (تتجه إلى النافذة)**:** لو نأيتُنَّ قليلًا ... إنَّ الغابة متَّسعة الأرجاء!

الجَوقَة: نحن نحتفل بهناءِ بجماليون!

إيسمين: إنه ليس هنا الآن.

الجَوقَة: إنه لا بُدَّ عائدٌ معها الآن!

إيسمين: لا يدري أحدٌ متى يعودان! ... إنهما منذ ليالٍ في الكوخ بغابة السَّرْو عند الغدير!

الجَوقَة: في الكوخ عند الغدير! ... فَلْنذهب إليهما!

إيسمين: نعم ... احملْنَ أجمل أغانيكن، وأبدع رقصاتكن إلى هذين السعيدَين!

الجَوقَة: وخير ما جمعنا لهما من زهورٍ برِّية؛ ننثره على جسديهما المتعانقَين!

(ينصرفْنَ راكضاتٍ كركْض الغزلان النافرات.)

إيسمين: أيها العزيز نرسيس ... إني مُصغِيةٌ إليك!

نرسيس: أتَرَينَه غاضبًا عليَّ كثيرًا يا إيسمين؟

إيسمين: لماذا يغضب عليك، مَن ذا يُحمِّلك تَبِعة ما حدث؟!

نرسيس: أقسم لكِ إنها هي التي ...

إيسمين: اختطفتْك ... أعلم ذلك ... ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك!

نرسيس: أجل! ... لقد قالتْ لي في غيبة بجماليون: «هلُمَّ بنا نخرج إلى الغابة! ... نلعب ونقفز ونجري ونتسابق كما تفعل أيائل الغاب!» فقلت لها: «لا أستطيع حتى يأذن لي بجماليون.» فجذبتْني من ذراعي جذبًا ... وجعلنا نجري.

إيسمين: حتى بلغتُما غابة السَّرْو!

نرسيس: نعم! ... عند الكوخ الذي علَّمتِني موضعه!

إيسمين: وطِفقتما تلعبان كطفلين أمام الغدير الذي طالما كنتَ تنحني متأملًا صورتَك في صفحة مائه الرائق!

نرسيس: نعم ... لعبنا حتى غَلَبنا النعاس!

إيسمين: ولَّما استيقظتَ لم تجِدْها إلى جانبك!

نرسيس: لقد قلت في نفسي لعلَّها ضلَّت في الغابة، أو لعلَّها عادت إلى الدار! ... وفي الحالين لم أجرؤ على لقاء بجماليون!

إيسمين: ولكنك جَرُؤتَ على لقائي فبحثتَ عني كل مكان ... لماذا؟

نرسيس: نعم يا إيسمين ... لأنكِ تستطيعين أن ... أن تُشيري عليَّ بما ينبغي أن أفعل.

إيسمين: أخبرني يا نرسيس، ولا تكتمني أمرًا: كيف شعورك نحوها؟

نرسيس: لست أفهم ما تقصدين؟!

إيسمين: لقد عادت إلى بجماليون وكلها حُبٌّ له، وكلها إعجاب ... لكأنَّ الآلهة قد صبَّتها في خَلْقٍ جديد ... إنهما الآن متحابَّان متفاهمان ... لكأنَّ فينوس وأبولون يتنافسان في إغداق كنوزهما على هذين الزوجين السعيدَين! ... ما وقْعُ كلِّ هذا في نفسك الآن؟

نرسيس: لا شيء! ... إني ما كنت أودُّ أن نترك الدار لحظة ... وما كنت أنا في حاجة إلى اللعب معها في الغابة!

إيسمين: أهي عندك امرأةٌ مثل كل النساء؟

نرسيس: امرأة! ... ما أعجبَ قولَكِ هذا عن جالاتيا! ... امرأة ... تلك التي طالما جلستُ أحرسها وهي تمثال من عاج فوق هذه القاعدة من الرخام! ... امرأة! ... تلك التي طالما نفضتُ عن صدرها وكتفيها ذرَّات التراب!

إيسمين: ولكنها الآن ...

نرسيس: إنها دائمًا تلك اللعبة التي شاهدتُ بعيني صنعها ... إني لأُدهش كيف يستطيع بجماليون أن يحبَّ هذا الشيء الذي صنعه بيده! ... لا تضحكي منِّي يا إيسمين إذا قلتُ ذلك: إني وأنا طفلٌ كنتُ أقف على حانوتِ رجلٍ يصنع عجلاتِ سباقٍ خشبيةً صغيرةً للأطفال ... لها خيول تجرُّها من الخشب ... ولقد صَنَع ذات مرة حصانًا يهزُّ رأسه كأنه حي ... فعجبتُ له يومئذٍ عجبًا مماثلًا لعجبي يومَ رأيتُ جالاتيا تتكلم وتمشي لأول مرة ... لقد جرينا نتسابق في الغابة، وأنا أنظر إليها ضاحكًا ذاكرًا ذلك الحصان الخشبي!

إيسمين: يا لك من طفل ... دائمًا!

نرسيس: أخبريني يا إيسمين لماذا أحسُّ الآن أني في حاجة إليكِ دائمًا؟!

إيسمين: لأُشير عليك بما ينبغي أن تفعل!

نرسيس: نعم ... بل ليس من أجل هذا وحده ... أودُّ أن أقول لكِ شيئًا آخر!

إيسمين (في بعض اضطراب)**:** لا تقُل الآن! ... لا تقُل الآن!

نرسيس: إنكِ تخشين ألَّا أُحسِنَ الكلام!

إيسمين: ليس هنالك ما يدعو إلى العجلة!

نرسيس: إنكِ سيئة الظنِّ بي!

إيسين: فَلْنتحدث فيما جئنا له ... فَلْنتحدث عن بجماليون!

نرسيس: إنكِ مضطربة يا إيسمين!

إيسمين: لا ... مطلقًا ... إنما أريد أن أشير بما يجب عليك!

إني أعلمُ مكانَ بجماليون من نفسك؛ فهو الذي وجَدَك طفلًا رضيعًا عند جدولٍ من جداول هذه الغابة، فآواك وأرضعك من ألبان الماعز وربَّاك ... على أني أرى: خير ما تفعل هو أن تلزم الصمت؛ فهو يعرفك كما أعرفك! ... ولم يخطر قَط بباله أنك أتيتَ أمرًا يدعو إلى اللوم والتأنيب ... ثم إنه مشغول عن كل هذا الآن ... إنه في حاجة إلى النسيان!

فَلْندعه ينسى مَن كان، وما كان ... حتى لا يعيش إلا لها وبها، هذه اللحظات التي طالما تمنَّاها ... ولنحذر من أن نفسد عليهما هذا الهناء، أو نُلقي — بمجرد حضورنا — غمامًا على وجه هذا الصفاء!

نرسيس: أصبتِ! ... لا ينبغي أن أراه الآن.

إيسمين: وإذا رأيتَه فلا تذكِّره بشيء؛ فهو لا بدَّ قارئٌ في عينيك براءة الطفل الوادع الجميل!

نرسيس: حَسْبكِ يا إيسمين! ... كفي! ... أنتِ تعلمين أني لم أعُد طفلًا!

إيسمين: منذ متى!

نرسيس: منذ ... منذ ... ولكنكِ تُحرِّمين عليَّ أن أتكلم.

إيسمين (تسدُّ فمه بيدها في لُطف): نعم ... أَغلقْ هذا الآن يا نرسيس!

نرسيس (يسحب يدها من فمه بلطفٍ، ويلثمها): هذه اليد تخشى أن تفتح الصَّدَفة البرَّاقة لئلَّا تجِدها خالية من اللؤلؤة!

إيسمين: عجبًا! ... مَن علَّمك هذا؟

نرسيس: أتحسَبين أني نسيتُ كلماتكِ؟ ... لم أنسَ قَط كلمة من كلماتكِ ... أتعلمين يا إيسمين لماذا ذهبتُ أبحث عنكِ في كل مكان؟!

إيسمين: صه! ... لا تقُل شيئًا بعدُ ... يكفيني ما سمعتُ! ... لا تَزِدْ! ... لا تَزِدْ!

نرسيس: بحثتُ عنكِ؛ لأني ... وجدتُ أني لم أعُد دميةً تلعب مع الدمى!

إيسمين: حقًّا؟!

نرسيس: وعنكِ أنتِ وحدكِ بحثتُ ... لأني أحسستُ أني أحمل جزءًا كبيرًا منكِ هنا.

(يُشير إلى صدره وقلبه.)

إيسمين: أنت تحسُّ هذا وتقوله؟ ... وا فرحتاه!

نرسيس: تلك الزهرة المقفلة التي كان لا بدَّ لها من قطرات الندى لتتفتح!

إيسمين: أوَتساقطتْ هذه القطرات؟

نرسيس: من عينيكِ ... يوم فاجأتُكِ ذلك المساء تبكين ... فسألتُكِ عن بكائكِ فقلتِ: لفراق جزء من نفسكِ هو خيرها عندكِ، حَمَلها أحد الناس وذهبَ ... فسألتُكِ عن هذا الرجل أهُوَ يعرف ما حَمَل؟ ... فقلتِ: «ليس من الهيِّن أن يعرف.» ولكنكِ لن تقنطي منه ... فهو لا بدَّ شاعر يومًا بما يحمل ... لأن الإنسان لا يستطيع أن يجهل طويلًا أنه يحمل شيئًا ثمينًا.

إيسمين: أأنا قلتُ لكَ هذا كله؟

نرسيس: لقد كنتِ تتكلمين في همسٍ؛ كأنما الألفاظ تخرج من قلبكِ، عن غير طريق شفتيكِ!

إيسمين: كيف رأيتَ هذا؟

نرسيس: لستُ أدري ... لقد شعرتُ عندئذٍ بذلك الحِمْلِ الثمين!

إيسمين: وكيف كتمتَ عني كلَّ هذا؟

نرسيس: عجبًا لكِ يا إيسمين؟ ... كيف أتكلم وأنتِ دائمًا تضعين يدكِ على فمي!
إيسمين: كنتُ أصدِّق!
نرسيس: أنا أيضًا ... ما صدَّقتُ بادئ الأمر كلَّ ما بي، ولكنه شيءٌ أقوى منِّي!
إيسمين: نعم ... إنه دائمًا ... شيءٌ أقوى منَّا كثيرًا!
نرسيس: أتدرين لماذا؟
إيسمين: تكلَّمْ أنتَ يا نرسيس! ... تكلَّمْ.
نرسيس: لأنه يجعلني أرى ما لم أرَ من قبل!
إيسمين: ماذا ترى الآن يا نرسيس؟
نرسيس: أخبريني يا إيسمين ... هل كنتِ دائمًا كذلك؟
إيسمين: وما قيمة ما كنتُ؟ ... إني أكون عندما يتفتَّح قلبك ليراني.
نرسيس: هَلُمِّي بنا يا إيسمين!
إيسمين: إلى أين؟
نرسيس: إلى أيِّ مكان ... أنا أيضًا ينبغي لي أن أنسى مَن كان، وما كان ... حتى لا أعيش إلا لكِ وبكِ!
إيسمين: هلُمَّ بنا يا نرسيس العزيز!

(يَمضيان نحو الباب وهما شِبه متعانقَين ... يظهر أبولون وفينوس في النافذة.)

أبولون (همسًا لفينوس مشيرًا إلى إيسمين الخارجة): انظري! ... مَن هذه المرأة؟
فينوس: امرأةٌ قد استطاعت أن تَخْلُق بالحُب!
أبولون: عجبًا ... كما استطاع بجماليون أن يَخْلُق بالفَنِّ!
فينوس: كما ترى ...
أبولون: امرأةٌ فانية!
فينوس (باسمةً): هنا السرُّ!
أبولون: ما قوة الحُب التي يستطيع بها هو أيضًا أن يخلُق؟
فينوس (في زهوٍ وخُيَلاء): هنا سرُّنا!
أبولون (بعد لحظة): ما أجدرَ أحدَهما بالآخر! ... إنهما من طرازٍ واحد!
فينوس: طراز الخالقين!
أبولون: أتساءل لماذا لم يحبَّ أحدُهما الآخر؟

فينوس: ولماذا نحن لم يحبَّ أحدُنا الآخر؟ ... يا أبولون لقد شُغفتَ أنت بكليمين، وهي من فصيلة المخلوقين!

أبولون: وشُغفتِ أنتِ بأدونيس، وهو بَشَرٌ فانٍ؟

فينوس: لا تَعجب إذن أن يحبَّ إله مخلوقَه ... إني لأراه طبيعيًّا هذا الحُب بين نوعين مختلفين! ... بل لعلَّ هذا هو الوضع المعقول، مخلوقاتنا هي صنعتْنا ... إنما نَعجب بصنعتنا في هذه المخلوقات ... بل هي شيءٌ منا ... إنما نولَعُ بصورتنا، ونهيم بأنفسنا في هذه الكائنات!

أبولون: يا للخجل! ... لا تقولي ذلك يا فينوس بهذه الصراحة! ... إنها الأثرة إذن وحُبُّ الذات!

فينوس: ما نحن إلا سجناء هذه الذات! ... وأنت الذي قالها قبلي يا أبولون ... ألا تذكُر؟ ... ألستَ أنت القائل: إن بجماليون استطاع ما لم نستطع؛ فسما على ذاته، وحطَّم أسوارها يوم أبدع — وهو الهالك — ذلك الخلود!

أبولون: لست أدري هل يتاح لي أن أقول ذلك عنه اليوم؟! ... إنه يفعل الآن مثلنا! ... يسجن ذاته في حُب مخلوقٍ من صُنع يده ... لقد نجحنا في قصِّ أجنحة سُموِّه ... لقد هبطنا به إلى مستوانا ... لقد حبسنا تحليقه غير المحدود في كيانٍ محدود ... نعم ... إني أستطيع اليوم أن أقول: إنَّا انتصرنا عليه!

فينوس: وأي انتصار؟!

أبولون: ولكن ... يجب أن تعترفي أنَّ الفضل لي!

فينوس: عفوًا يا أبولون ... عفوًا ... بل الفضل لي أنا!

أبولون: يا لنكران الجميل! ... قلتُ لكِ: إنه طبعُ المرأة؛ يجثم أبدًا في أعماق نفسك!

فينوس: نكران الجميل؟ ... أي جميل؟

أبولون: ألم تطلبي المعونة ... وتسألي المَدد، وتُلحِّي عليَّ في التدخل لإنقاذكِ مما وقعتِ فيه؟!

فينوس: لم أطلب إليك إنقاذًا، وإنما دعوتُك إلى إظهار براعتك ... هذا كل ما في الأمر!

أبولون: براعتي! ... فليكن الأمل كما تقولين ... ها هي ذي النتيجة ... نجاحٌ ليس بعده نجاح!

فينوس: عفوًا يا أبولون عفوًا! ... ليس كل هذا النجاح لك! ... لا تتجاهل ما صنعتُ أنا أيضًا بعد ذلك!

أبولون: بعد ذلك؟!

فينوس: أوَكنتُ من الحُمْق بحيث أتركك وحدك كما تركتَني أول الأمر ... إنك حقًّا جعلتَ جالاتيا تفهم بجماليون، وتُعجب به ... هذا كل ما تستطيع أنت ... هل تستطيع أنت أكثر من هذا؟

أبولون: وماذا صنعتِ أنتِ إذن بعد ذلك؟

فينوس: كل هذا الحُب المُلتهِب الذي يغمرهما الآن بلذَّاته، ومُتَعه، ومسرَّاته ... كل ما عندي من حيلة بذلتُها ... وكل ما عند كيوبيد من سهامٍ أمرتُه فرشق بها جسديهما!

أبولون: عجبًا! ... إذن كنا نتبارى في حشد ما لدينا من سلاح!

فينوس: إنها كما تعلم كانت الموقعة الأخيرة!

أبولون: أجل! ... لم يبقَ إلا أن يُقرَّ لنا بالفضل وهو جاثٍ على ركبتيه!

فينوس: بي شوق أن أرى وجهه المشرق بالسعادة!

أبولون: ستَرَينَه بعد لحظة ... إنهما الآن في طريق العودة؟

فينوس: سعادته هي من صنعي ... لقد استحققتُ بخوره وقرابينه!

أبولون: لو كانت لديكِ ذرَّة من العدالة والإنصاف! ... ولكنهما ليسا في طبيعتكِ!

فينوس: مِن صُنعنا ... أنا وأنت ... ما دام هذا يُرضيك!

أبولون: أوَلم نقُل إننا تعاونَّا ...؟

فينوس: طبعًا! ... طبعًا! ... طبعًا! ... صه! ... إنهما قادمان.

أبولون: لا تدفعيني هكذا بمَنْكِبك ... في المكان متَّسعٌ!

فينوس: صه! ... أريد أن أرى بسمة الهناء تملأ فمه!

(يُفتح الباب، ويدخل بجماليون وخلفه جالاتيا وهما صامتان فاتران.)

(بجماليون يتثاءب تثاؤبًا طويلًا.)

أبولون (همسًا لفينوس): هذه علامة لا تسرُّ؟

جالاتيا (في عتاب): ما هذا يا بجماليون؟

بجماليون (وهو يجلس على مقعد في تراخٍ وكسل): المعذرة!

جالاتيا (تفحص بيدها الرياش والأثاث): ما أقذر الدار! ... منذ غادرناها وهي مهمَلة! ... انظر لقد تراكم الغبار على الفراش!

(بجماليون لا يبدو عليه أنه معنِيٌّ بكلامها.)

جالاتيا (تتجه إلى أحد أركان الدار وهي تقول كالمخاطِبة نفسَها): أين المكنسة؟
بجماليون (يُفيق، ويلتفت إليها): ماذا تقولين؟
جالاتيا: لا شيء ... لستُ أخاطبك أنت.
بجماليون: حسنًا فعلتِ!
جالاتيا (تلتفت إليه دَهِشةً): بماذا؟ ... بعدم مخاطبتي إياك؟
بجماليون: لستُ أقصد ذلك ... تكلَّمي إذا شئتِ.
جالاتيا (وهي تكنس): لا يبدو عليك قَط أنك في اشتياق إلى حديثي!
بجماليون: أتكنسين الآن؟!
جالاتيا: أتظنُّ في الإمكان أن نعيش هكذا بين هذا الغبار؟
بجماليون (يتأمَّلها مليًّا، ويقول كالمخاطِب لنفسه): آه ... وفي يدها مكنسة!
جالاتيا (تلتفت إليه): ماذا تقول؟
بجماليون: لا شيء! ... لا شيء!
جالاتيا: أَلَكَ في أن تصنع الآن شيئًا مفيدًا؟
بجماليون: ما هو؟
جالاتيا: انتقلْ بمقعدك إلى هذا الركن النظيف الذي فرغتُ من كنسه!
بجماليون: أُف!

(ينهض بمقعده جهةً أخرى.)

جالاتيا: عفوًا إذا كنتُ قد كلَّفتُك كلَّ هذا الجهد!
بجماليون: لماذا هذا التهكُّم؟
جالاتيا: أنا تهكَّمتُ؟! ... أرجو منك أن تعلم أن كلامي لك ينطوي دائمًا على أجمل معاني التقدير!
بجماليون: معاني التقدير لمحتُها في عينيكِ هذا الصباح، وأنتِ تنظرين إلى أولئك الحطَّابين في الغابة، والعَرَق يتصبَّب من جباههم!
جالاتيا: كل كدٍّ جديرٌ بالتقدير!
بجماليون: كل زوجة لا تستريح حتى ترى جبين زوجها يتعفَّر بتراب العمل والشقاء ... إنكِ تعرفين أني لستُ في حاجة إلى أن أعمل وأشقى.
جالاتيا: ومن ذا يطلب إليك ذلك؟

بجماليون: نظراتكِ، وإشاراتكِ.

جالاتيا: إنك صرتَ مَلولًا شديد السَّأم يا بجماليون!

بجماليون: بل إني لشديد الصبر أكثر مما ينبغي.

جالاتيا: ولماذا أكثر مما ينبغي؟ ... ما يُرغمك على الصبر إرغامًا؟!

بجماليون (في حِدَّة): ماذا تريدين أن أصنع؟

جالاتيا: بجماليون العزيز! ... أَخرج كل ما في صدرك من أشياء ... إني أحسُّ أنك في ضِيق ... وأنك تحاول أن تُخفي عني ضجرك ... لا تكتُمْني شيئًا من أمرك يا بجماليون! ... ثِقْ أني لن أغضب عليك ... فأنا لا شيء يُغضبني عليك، وثِقْ أني سأفعل المستحيل لأردَّ الراحة إليك؛ فأنا لا عمل لي في الحياة إلا أن أُعطيك الراحة والطمأنينة والهناء ... ألحياتي غرضٌ آخر غير هذا؟!

بجماليون (يهدأ قليلًا): شكرًا لكِ يا «جالاتيا» العزيزة!

جالاتيا (تدنو منه): إنك في حاجة إلى الراحة ... الإقامة في الكوخ لا تلائمك ... هنا يا بجماليون أعرف كيف أُحيطك بكل عنايتي! ... مَن يدري لعل شمس الغابة التي كنا نتعرض لها طول النهار! ...

بجماليون: كلا ... ليست الشمس!

جالاتيا (تضع خدَّها على جبينه): جبينك حارٌّ بعض الشيء!

بجماليون: أتَرَين ذلك؟

جالاتيا (تجسُّ يديه): ويداك أيضًا ... يجب أن أعدَّ لك فراشك لتأوي إليه!

بجماليون: الآن ... لا ... لا أريد النوم الآن!

جالاتيا: لا تَنَمْ إذن ... استلقِ بجسدك على الفراش ... وأنا أحضر إليك شرابًا من عصير الفاكهة ... وأجلس عند قدمَيك هكذا ... أحادثك حتى تنام!

بجماليون (يعبث بشعرها وهي جاثيةٌ عند قدمَيه): ما أطيبَكِ يا جالاتيا! ... إني أحبكِ ... نعم ... أحبك على الرغم من كل شيء!

جالاتيا (ترفع عينيها): على الرغم من كل شيء ... ماذا تعني؟!

بجماليون: لستُ أعني شيئًا ... إنما هي كلمات نلفظها دون أن ندري لماذا لفظناها.

جالاتيا: أنا أدري لماذا لفظتَها!

بجماليون: لا أظنُّ أنكِ تدرين بما لا أدري به أنا نفسي ... لا تشغلي بالكِ أيتها العزيزة بما تلفظ الأفواه من كلمات ... إنما جُعلتْ لنا هذه الفوَّهة لنُخرج منها دخانًا من الحماقات!

جالاتيا: دخان يُنذرنا أحيانًا بما في جوف البركان! ... ومع ذلك ... سأفعل ما تريد ... لن أشغل بالي بغيرك أنت!

بجماليون: وحتى هذا ... لا تُغالي فيه!

جالاتيا: آه يا عزيزي بجماليون! ... ألم أَقُلْ لك إنك تتبرَّم بكل شيء الآن! ... حتى بحبي لك.

بجماليون: هذا غير صحيح! ... إني أمنعكِ عن التحدُّث هكذا ... إنكِ لتزيدين في ألمي بمثل هذا الكلام.

جالاتيا: أزيد في ألمك لو أني كنتُ جديرة أن تخبرني بهذا الألم؟! ... متى تأذن، على الأقل، في أن أضمِّد جراح نفسك؟

بجماليون: جراح نفسي؟ ... مَن الذي أخبرك أني جريح ... وأني متألم؟ ... هل شكوتُ؟ ... هل توجَّعتُ؟ ... من أين تأتين بهذه الهواجس والأوهام؟!

جالاتيا (تنهض، وتعود إلى مكنستها): سأفعل ما تريد ... سألزم الصمت ... إني ولا ريب أسأتُ الفهم!

بجماليون: إنَّا دائمًا نُسيء فهْمَ أنفسنا ... خير الأمور — فيما أرى — ألَّا نطلب هذا الفهم أو نحاوله إذا أردنا لأنفسنا السلام!

جالاتيا: لن أحاول ... إذا جُعتَ فأخبرني لأهيِّئ لك الطعام ... يُخيَّل إليَّ أن في مقدوري أن أبتدع لك لونًا منه لم تَذُقْ مثله ... إنه من مختلف الخُضَر، منسَّقةً تنسيقًا تُسرُّ له العين قبل أن يستسيغه الفم!

(لحظة صمت.)

بجماليون (وهو في إطراقه): ما رأيكِ في أن أعود إلى العمل؟!

جالاتيا (تلتفت سريعًا): العمل؟!

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه): هو الذي يُشعر الإنسان بأنه لم يُلقِ السلاح بعدُ.

جالاتيا (تتنهَّد): آه ... يا بجماليون!

بجماليون (يرفع رأسه): ماذا تقولين أنتِ في ذلك؟

جالاتيا: لقد حسِبتُ أنه خير علاجٍ لِمَا أنت فيه ... لكن افعل ما يروق لك!

بجماليون: ماذا أعمل؟ ... إني لن أصلح بالطبع حطَّابًا في الغابة!

جالاتيا: إنَّك خالق!

بجماليون: نعم! ... وأين هي الآن أدوات الخَلْق؟

جالاتيا: ماذا ينقصك؟ ... ها هي ذي القاعدة! ... ضَعْ عليها كتلةً من الرخام ... أو من العاج!

بجماليون: صَه أيتها المرأة!

(يضع رأسه بين كفَّيه.)

جالاتيا: أتراني أسأتُ القول يا بجماليون العزيز؟

بجماليون: آه ... ليت هذا وحده يكفي لأن نُسوِّي مخلوقًا فنيًّا!

جالاتيا: لديك العبقرية دائمًا.

بجماليون: العبقرية؟ ... نعم ... بجوادها الطائر، قويِّ الجناح، المحلِّق في سماءٍ غير متناهية الأطراف!

جالاتيا: لديك هذا الطائر يا بجماليون!

بجماليون: ربما ... ولكن أين هي السماء؟

جالاتيا: ماذا تقول؟

بجماليون: ما فائدة الطائر بغير سماء!

جالاتيا: فهمتُ ما تعني ... يا للكارثة!

بجماليون: نعم ... إنها لكارثة!

جالاتيا: أخشى أن أكون أنا السبب يا بجماليون!

بجماليون: لا ... بل ... بل ...

جالاتيا: بل ... مَن؟

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** أولئك الذين استطاعوا الإتيان بهذه المعجزة: أن يحوِّلوا السماء إلى سقف، وأن يجعلوا الجواد الطائر يصفق بجناحيه داخل حجرة! ... هذا هو كل انتصارهم!

جالاتيا: عمَّن تتكلم يا بجماليون؟

بجماليون (صائحًا ثائرًا)**:** أولئك الذين سلبوني فنِّي.

جالاتيا: ولكنَّ فنَّك باقٍ!

بجماليون: أين هو؟ ... أين هو؟

جالاتيا: لقد صنعتَ في الفن أثرًا.

بجماليون: أين هو؟ ... أين هو هذا الأثر؟ ... أين هو؟
جالاتيا: آه ... ليس من السهل عليَّ أنا أن ...
بجماليون: هذا الأثر هو ... أنتِ ... أليس هذا ما تقصدين؟
جالاتيا: ذلك ما كنتُ أظنُّ.
بجماليون: لا!
جالاتيا: لا؟! ... لستُ أنا جالاتيا؟!
بجماليون: لستِ أنتِ أثري الفني ... إني لم أصنع امرأة في يدها مكنسة!
جالاتيا (تنظر إلى المكنسة في يدها، وتداريها في خجلٍ وألم)**:** آه!
بجماليون (يهدأ قليلًا)**:** معذرةً يا جالاتيا ... إني آسفٌ كل الأسف ... إني لم أُرِدْ إيلامكِ، ولا إيذاءكِ ... ولم يخطر على بالي الانتقاص من تقديري لكِ واحترامي إيَّاكِ ... إنما ... إنما ...
جالاتيا: لا تهتمَّ لأمري يا بجماليون ... إني أفهم مرادك، وأدرك ما يجول في خاطرك!
بجماليون: يا زوجتي المحبوبة ... إنكِ خير زوج، وأصلَحُ رفيق، وأصدَقُ صديق!
جالاتيا: نعم ... ولكني لستُ عملك الفني ... إنك لَعلَى صواب يا بجماليون!
بجماليون: ليس الذنب ذنبكِ يا جالاتيا ... إنها الحياة ... جعلتكِ كما أنتِ الآن!
جالاتيا: أقلَّ جمالًا من أثرك الرائع!
بجماليون: إني أحبُّك على الرغم من ذلك.
جالاتيا: نعم ... ولكن ... حُبٌّ فقيرٌ بخسٌ ... حُبٌّ خليقٌ بالحجرة المغلقة، والسماء التي يحدُّها سقف ... حُبٌّ لن يغنيك عن ... عن ... جالاتيا الأخرى!

(بجماليون يضع رأسه بين كفَّيه.)

جالاتيا (تمرُّ بأناملها على شعره في حنانٍ ومودة)**:** يؤلمني أن أراك حزينًا يا بجماليون.
بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** نعم، أنتِ زوجتي المحبوبة ... ولكنكِ لستِ ... أثري الخالد!
جالاتيا: يسرُّني أيها العزيز أن تعلن إليَّ هكذا كل خلجات قلبك!
بجماليون: وفيمَ المكابرة ما دمتِ قد شعرتِ بما يكاد يمزِّق نفسي قطعتين ... ويشطرها شطرين ... نعم ... أنتما الاثنان تتجاذبان قلبي ... أنتما الاثنان تتصارعان ... هي بارتفاعها وجمالها الباقي ... وأنت بطيبتك وجمالك الفاني ... هي الفن، وأنتِ الزوجة!

أيتها الآلهة ... لقد أخذتم منِّي فنِّي، وأعطيتموني زوجة.

(يأخذ رأسها في كفَّيه، ويتأمَّلها وهي جاثية عند قدمَيه.)

إني صنعتُكِ هكذا حقًّا يا جالاتيا ... هذا الجسم ... وهذا الرأس ... وهذا الوجه؛ لكن ... ما الذي تغيَّر فيكِ مع ذلك؟ ... أتدرين كيف صنعتُ جالاتيا العاجية؟ ... لقد حملني ذلك الجواد المجنَّح في سماء المُثُل العليا ... حلَّقتُ، حلقت حتى تعبت الأجنحة، وكلَّتْ عن متابعة التصعيد ... هناك بين أمثلة الجمال المختلفة تخيَّرتُ وانتقيتُ وعُدْتُ لجالاتيا بأكمل الصور وأجمل النظرات، وأحلى البسمات، وأروع اللفتات ... ثم نبذتُ ونحَّيتُ ... فجعلتُ جالاتيا منزَّهة عن كل نقصٍ وكل سهوٍ وكل سخفٍ ... إنها الجمال مُقطَّرًا من خلال ألف مِصْفاة من الصبر الطويل، والعمل المُضنِي، والتجربة المتصلة ... ولقد ثبَّتُّ ذلك كله في العاج وخلَّدتُه ... لا تتألمي يا زوجي العزيزة ... لم يذهب كل هذا الجمال عنكِ ... لا ... لكن ما الذي تغيَّر فيكِ مع ذلك؟ ... نظراتكِ جميلةٌ ... نعم ... ولكنَّ فيها شيئًا محدود المعنى ... أما نظراتها فكانت كأنها تشرف على عوالم غير محدودة الآفاق ... لَفتاتكِ رائعةٌ، ولكن تفسدها أحيانًا حركةٌ طائشة، أما لَفتاتها فكانت دائمةَ الروعة والجلال ... بسماتكِ حلوة، ولكن ... أعرف ما تنطوي عليه! ... وشفتاكِ رقيقتان، ولكن أعرف ما ينفرج عنهما من حديث، وما يمكن أن ينطبع عليهما من قبلات! ... أما شفتاها فكانتا تنفرجان عن كلماتٍ لم تقُلها قَط. ولن تقولها أبدًا، ولكنَّ لها صدًى بعيدًا، يتغلغل في كل قلب إلى الأغوار التي لا يُدرَك لها قاع ... وفمها يوحي بقُبلات لم تُمنح قَط، ولن تُمنح أبدًا؛ ولكنها تتراءى للأعين دائمًا، وتثير النفوس دائمًا على مدى الأزمان ... هذا هو الفرق بينكِ وبينها: كل ما فيكِ محدود، وكل ما فيها غير محدود!

جالاتيا (في صوتٍ خافتٍ، وإطراقٍ ذليل): صدَقتَ يا بجماليون!

بجماليون: إياكِ أن تدَعي هذا الكلام يجرح نفسكِ ... إني لا أريد إذلالكِ أنتِ يا زوجتي العزيزة! ... إنما أسوق الكلام إليهم هم ... في عليائهم! ... سكان أولمب ... هه! ... سكان أولمب الجبابرة! ... أولئك الخالدون الذين لم يستطيعوا أن يصنعوا غير الهالك المحدود ... أمَّا أنا الهالك المحدود فقد استطعتُ أن أصنع الخلود!

يا سكان أولمب، في إمكانكم أن تعجنوا ذلك المزيج من الجمال والقبح والنبل والسخف والارتفاع والابتذال، وتُسمُّوا ذلك الحياة! ... ولكنكم لن تستطيعوا أبدًا أن تصنعوا مثلي ذلك الشيء المقطَّر المصفَّى الذي يُسمَّى الفن ... نعم ... الفن هو قوَّتي أنا البشر الفاني ...

هو جبروتي ... هو معجزتي، هو سلاحي ... في إمكاني أن أقيس قامتي إلى قامتكم، وأن أنتَضِي سلاحي لأقرع به سلاحكم ... سلاحكم الحياة، وسلاحي الفن!

(تبدو من فينوس في النافذة حركة؛ فيبادر أبولون بوضع إصبَعه على فمه مُسكِتًا إيَّاها.)

جالاتيا (الدموع في عينيها): إني فخورة بك يا بجماليون؛ فإن خير ما فيَّ هو من صُنعك ... ولكن ...

بجماليون: أتبكين؟!

جالاتيا: لا أريد أن تبغضني ... لستُ أحتمل فكرة بغضك لي ... إني أفهم الآن كل ما قلتَ ... إنَّ مقامي هنا على هذه الصورة مستحيل ... إني لستُ من عملك الخالص كما ذكرت ... إنك تنظر إليَّ، وفمك يكاد يرميني في كل لحظة بهذه العبارة القاسية: يا للبشاعة! ... يا للجريمة! ... لقد تشوَّه عملي! ... أتحسَبني أطيق قولك هذا طويلًا؟!

بجماليون: لا تبكي يا جالاتيا ... ألم أُقُل لكِ إني لستُ ناقمًا عليكِ أنتِ!

جالاتيا: بل إنك لناقمٌ عليَّ ... بل إن كل يوم يمضي تتسع معه الهوَّة بينك وبيني ... إنَّ وجودي معك لن يَفتُر يذكِّرك بأثرك الضائع وفنِّك المفقود ... بجماليون! ... يجب أن نفترق!

بجماليون: نفترق؟!

جالاتيا: منذ الآن! ... هذا خير لي ولك ... إني لن أحتفظ حتى بهذه الصورة طويلًا ... إني في كل يوم أسير خطوةً نحو الهَرَم ... إني لن أتحمَّل عينيك، وهما تنظران إلى جسمي ووجهي بعد سنوات! ... جنِّبْني هذا الإذلال، ووفِّر عليَّ هذه الصدمات.

بجماليون: تهرَمين؟!

جالاتيا: ألم تفكر في ذلك يا بجماليون؟ ... أليس شَعري مُعرَّضًا للشيب، ووجهي للتجاعيد، وجسدي ...؟

بجماليون: كفى ... يا جالاتيا!

جالاتيا: أرأيت؟ ... إنك لا تستطيع أن تتخيل ذلك!

بجماليون (في همسٍ): لا أستطيع!

جالاتيا: لقد لفظتَ الحقيقة الساعة يا بجماليون! ... إني لستُ عملك الفني! ... ولا أستطيع أن أكون كذلك ... ينبغي أن تفكر في شيء آخر أيضًا ... هو احتمال موتي!

بجماليون: موتكِ!

جالاتيا: وبه يُمحى كل أثرٍ لعبقريتك!

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** موتكِ! ... لا ... لا يمكن أن أطيق ذلك!

جالاتيا: أعرف هذا ... لا لأنك تحبني ... بل لأنها صدمة لكبريائك الفني!

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** عملي الجميل يتحول إلى تراب!

جالاتيا: أرأيت؟

بجماليون: وجهادي الطويل؟!

جالاتيا: وما اختلستَه من قبسات النور في سماء المُثُل العليا، وأنت على جناحَي الجواد الطائر؟! ... وما تخيَّرته وانتقيته من خير نماذج الجمال وأروع أشكال الكمال ... كل ذلك يُقدَّم وليمةً فاخرة لدود المقبرة!

بجماليون: ويلٌ لسكان أولمب! ... حَسْبكِ يا جالاتيا! ... كفى ... كفى ... لماذا تعذبينني بكل هذا الآن؟

جالاتيا: لستُ أدري يا بجماليون ... مغفرةً! ... إنها حماقات تخرج من فمي دون أن أعني بها شيئًا ... إنما أشعر مع ذلك شعورًا خفيًّا أننا سنفترق ... لستُ أدري كيف؟ ... فأنا لا أستطيع أن أغادرك راضية أو كارهة ... وإذا افترقنا فإلى أين أمضي بعيدةً عنك؟! ... كلَّا ... أرجو أن يكون شعوري كاذبًا ... وأغلب الظن أنه كذلك ... هلُمَّ فَلْنتحدث في شيءٍ آخر أيها العزيز بجماليون! ... لقد أطلنا الكلام في أشياء قاتمة سوداء ... قبِّلني يا بجماليون أيها الحبيب! ... قُبُلات كثيرة كثيرة ... فإني أخشى أن ...

بجماليون (شارِد الذهن)**:** نعم!

جالاتيا: بجماليون! ... ماذا بك؟ ... ماذا دهاك؟

بجماليون (ينهض بقوة)**:** إني أعرف الآن ما ينبغي أن أسلك من طريق!

جالاتيا (في قلق)**:** إلى أين تمضي؟ ... إلى أين تمضي؟

بجماليون (شارِد الذهن يتجه إلى الباب)**:** إلى المعبد!

جالاتيا (هامسةً خائفةً)**:** المعبد؟!

بجماليون (يعود إلى جالاتيا، ويمسك بها)**:** جالاتيا! ... جالاتيا! ... قبِّليني كثيرًا ... ولأقبِّلكِ قُبلاتٍ كثيرة ... كثيرة ... وداعًا.

(يتعانقان طويلًا.)

(يخرج سريعًا ... وتبقى جالاتيا جامدةً شاحبةً.)

جالاتيا (تقع منهوكةً على قاعدة التمثال بقربها، وهي تهمس): وداعًا!

(تضع رأسها بين كفَّيها.)

بجماليون (في الخارج صائحًا): أيتها الآلهة! ... يا فينوس! ... يا أبولون! ... رُدُّوا إليَّ عملي، وخُذوا عملكم! ... رُدُّوا عليَّ فنِّي ... أريدها تمثالًا من العاج كما كانت!

(فينوس تلتفت إلى أبولون.)

فينوس: أَسامِع؟
أبولون: نعم.
فينوس: والآن؟
أبولون: ليس هناك غير أمرٍ واحد: نسحب ما لنا، ونُعطيه ما له!
فينوس: ونسلِّم بهزيمتنا!
أبولون: أوَنستطيع أن نفعل غير ذلك؟ ... إنه يطلب ردَّ تمثاله كما كان ... فَلْنردَّ عليه تمثاله كما كان!
فينوس (تمدُّ يديها نحو جالاتيا المُطرِقة): ارتفعي عن جالاتيا أيتها الحياة! ... واتركيها تمثالًا من عاج!

(جالاتيا تجمُد فوق القاعدة.)

أبولون (يمدُّ يديه نحو جالاتيا الجامدة): عُدْ كما كنتَ يا فنَّ بجماليون! ... وسوِّ التمثال كما كان!

(جالاتيا تتخذ الشكل الذي كانت عليه من قبل فوق القاعدة الرخامية.)

الفصل الرابع

(الغابة تزأر في ظلامِ ليلةٍ حالكة ... والأشجار تترنح من الريح كالمَرْدَة الثائرة. ونرسيس في بَهْو الدار قد جلس إلى جوار الستار ... وهو مُطرِقٌ كالنَّاعِس ... وجَوقَة الراقصات التسع في غلائل قاتمة يتهادَينَ مقترباتٍ من النافذة.)

* * *

الجَوقَة (من خارج النافذة همسًا): نرسيس!
نرسيس (يلتفت إليهن هامسًا وإصبَعه على فمه): صه!
الجَوقَة (في همس): ماذا به؟
نرسيس (هامسًا): إنه نائم!
الجَوقَة (هامسةً): أهو مريض؟
نرسيس: أصابه بردٌ خفيف!
الجَوقَة: من أثر خروجه ليلًا إلى كوخ الغدير!
نرسيس: كفى ثرثرةً أيتها النساء!
الجَوقَة: ما هذا العنف في معاملتنا يا نرسيس؟ ... إنك لم تَعُد زهرةً رقيقة؛ بل صرتَ رجلًا وحشيَّ الطباع!
نرسيس: أؤغلق هذه النافذة في وجوهكن؟
الجَوقَة: هذه النافذة لم تُغلَق قَط في وجوهنا؛ لأن بجماليون يقدِّر الجمال!
نرسيس: أنا أيضًا أقدِّر الجمال ... ولكني أزدري الجميلات ... انصرفْن الآن!
الجَوقَة: حتى إيسمين؟
نرسيس: إنها ليست خيرًا منكن!

الجَوقَة: لا أمل فيك يُرتجى! ... كنا نحسَبها قد فتحتْ عينيك لترى — على الأقل — جمال المرأة!

نرسيس: لقد رأتْ عيناي منها أكثر مما ينبغي.

الجَوقَة: وأين هي الآن؟ ... أهجرتَها؟

(صوتُ سُعالٍ يرتفع من خلف الستار.)

نرسيس: أرأيتُنَّ؟ ... إنكن تزعجْن نومه.

الجَوقَة (في همس)**:** فَلْنذهب إذن ... فَلْننصرف!

(يغادرْن النافذة، وينصرفْن راقصاتٍ مع الرياح.)

بجماليون (صائحًا من خلف الستار)**:** نرسيس! ... اسقِني!

نرسيس (يُهرع نحوه)**:** استيقظت يا بجماليون؟!

بجماليون (يظهر في رداء النوم وعلى مَنكِبَيه غطاء)**:** أخبرني أولًا ... خُيِّل إليَّ أني سمعت صوت امرأةٍ هنا!

نرسيس: امرأة؟!

بجماليون: مع مَن كنتَ تتحدث إذن؟

نرسيس: هؤلاء الفتيات الثرثارات!

بجماليون (وهو يجلس على مقعده)**:** لا تضِقْ ذرعًا بهنَّ يا نرسيس!

نرسيس (ينظر إليه مليًّا)**:** ما أرفقَك اليوم بالنساء!

بجماليون (ينظر حوله في ضيق)**:** أُف! ... لقد سئمتُ هذا المكان!

نرسيس: لا يحسُن أن تغادر فراشك بهذه السرعة والليلة باردة، والريح تهزُّ الأشجار مُنذِرةً بعاصفة! ... إنك في حاجة إلى النوم الهادئ، والغطاء الدافئ لتسير نحو الشفاء!

بجماليون: لماذا تخاطبني كأني مريض؟

نرسيس: أنت كذلك منذ أيام!

بجماليون: يا لك من أحمق!

نرسيس: لم أَعُد أحمقَ ... لقد أفرطتَ في الخروج ليلًا يا بجماليون!

بجماليون: ألم أحرِّم عليك التدخل في شئوني؟!

نرسيس: ثِقْ أن لا شيء يعنيني الآن من أمرك غير صحتك!

بجماليون: حدِّثني أنت عن نفسك ... ما خبرُك مع إيسمين؟
نرسيس: لقد سألتَني عنها منذ أيام فأخبرتُك.
بجماليون: حقًّا ... حقًّا ... ومع ذلك ... حدِّثني عنها أيضًا.
نرسيس: أتراها جديرةً أن نكرِّس لها كل هذه الأحاديث؟
بجماليون: إنها امرأة ذكية فطِنة ... ألا ترى هذا؟
نرسيس: ليس هذا سببًا يكفي لأنْ نُسرف في تقديرها.
بجماليون: وهي تحبك أجمل الحب!
نرسيس: ليس للنساء عملٌ في الحياة غير الحب!
بجماليون: آه! ... هذا مع ذلك ليس بالشيء القليل!
نرسيس: لم أَعُد أرى الأمر كما تَصِف!
بجماليون: ويحك يا نرسيس! ... تلك التي بَصَّرتْك بأشياء، وجعلتْ منك إنسانًا ذا فهمٍ وإدراك ... يا لنكران الجميل! ... أهكذا دائمًا كلما فَتحتْ أعيننا العمياء يدٌ؛ نبدأ أولَ ما نبدأ بأن نراها أصغر مما كنا نتخيل؟!
نرسيس: لستُ أُسمِّي هذا إنكارًا للجميل! ...
بجماليون: ماذا تسمِّيه إذن ... كبرياء مواهبنا المتيقظة المدرِكة لذَاتها؟!
نرسيس: أتعنيني أنا بهذا يا بجماليون؟ ... لماذا توجه إليَّ هذا الكلام؟!
بجماليون: قليلًا من الهدوء يا نرسيس! ... قليلًا من الهدوء! ... أين هي الآن إيسمين؟
نرسيس: لستُ أدري!
بجماليون: إنها حيَّة على أي حال!
نرسيس: أرجو ذلك!
بجماليون: وهي ما زالت تحمل لك بعض المودة على الأقل!
نرسيس: أظن ذلك!
بجماليون (مُطرِقًا كالمخاطِب لنفسه): نعم! ... نعم ... المودة والرحمة ... أشياء تعطيها الحياة ... ولا يستطيع أن يعطيها الفن!

(نرسيس ينظر إليه مليًّا.)

بجماليون (يرفع رأسه نحوه): لماذا تحملق فيَّ هكذا؟!

نرسيس: لا ... لا شيء.

بجماليون: أيسوءك أن أتكلم في هذا؟

نرسيس: كلَّا ... على الإطلاق ... لستُ أُحرِّم عليك الكلام في شئوني!

بجماليون: شكرًا لك يا نرسيس!

نرسيس: إني أعلم أن الكلام في هذا الموضوع يعطيك كثيرًا من الراحة!

بجماليون (يرفع نظره إليه): ماذا تعني؟!

نرسيس (في خبث): إيسمين امرأةٌ حية على أي حال ... والمرأة الحية ليست بالشيء القليل!

بجماليون (يُطرِق): اسقِني يا نرسيس!

نرسيس: معذرةً! ... لقد نسيتُ أن آتي إليك بالماء ... تريد شربةً من ماء؟

بجماليون: لا أستطيع أن أسألك شرابًا آخر!

نرسيس: ولِمَ لا؟ ... إذا طلبتَ شرابًا من عصير الفاكهة!

بجماليون (في عنف): صه!

نرسيس: أتُراني تفوَّهتُ بما لا ينبغي يا بجماليون!

بجماليون (بعد تردُّد): حدِّثني في شأنك أنت ... أخبرني: أحقًّا تستطيع أن تعيش الآن حياةً ناعمةً هنيئةً بغير حنانِ إيسمين؟

نرسيس (ينظر إليه طويلًا): هذا سؤال لم أُلقِه بعدُ على نفسي!

بجماليون: ها أنا ذا ألقيه عليك الآن.

نرسيس: ليس الوقت الآن مناسبًا للتفكير في أحدٍ غيرك أنت، ولا في شيءٍ غير صحتك وما أنت فيه!

بجماليون (يعود إلى الإطراق): أصبت!

نرسيس (يتحرك): إني ذاهب أحضر إليك الماء!

بجماليون: إنها لحماقة وثرثرة وهُراء!

نرسيس (يقف، ويلتفت إليه): ماذا؟

بجماليون: هذا الذي نتحدث فيه الساعة! ... لكأنك لا تجِدُ أشياء عالية المعنى خالدة القيمة تحادثني فيها الآن!

نرسيس: أنا الذي لا يجدُ ... أو أنت الذي لا يريد أن يتكلم منذ أيام في غير هذا الضرب من الحديث!

بجماليون: كل ذلك من أجلك أيها الفتى الطائش!

نرسيس: من أجلي أنا؟

بجماليون: من واجبي أن أصلح ما بينك وبين إيسمين!

نرسيس: إني أراك تُحمِّل نفسك واجبات لم يكلِّفك بها أحد!

بجماليون (صائحًا): نرسيس! ... نرسيس! ... إني ... إني لم أَعُد أحتمل كبرياءك؟

نرسيس: ولماذا أحتمل أنا كبرياءك؟ ... أنت الذي يحرِّم عليَّ التدخل في شئونه، ويبيح لنفسه التدخل في شئوني ... ومع ذلك لستُ أضيق بهذا ... ولا أجِدُ فيه غضاضة ولا حرجًا ... لأني أفهمك، وأرثي لك.

بجماليون: ترثي لي؟!

نرسيس: أجل يا بجماليون! ... ليس من العسير على طفلٍ أن يفطن إلى العاصفة التي تهزُّ أضلاعك؛ كما تهزُّ الريح هذه الأشجار، ولكنك تتحامل وتتماسك؛ كالدوحة العتيقة في مستهل الخريف!

بجماليون: آسف يا نرسيس! ... إني قد قسوت عليك ولكن! ... إني لست دوحةً عتيقة ... كلَّا ... إني! ...

(تهبُّ الريح من النافذة بشدَّة.)

نرسيس: يحسُن أن نغلق هذه النافذة!

بجماليون: لا ... لا تغلقها الآن! ... لم يَأْنِ الأوان بعدُ.

نرسيس: أخشى عليك بَرْد الليل.

بجماليون: إني أتحمَّل دائمًا بَرْد الليل.

نرسيس: كنت أعتقد ذلك من قبل! ... لكن ... مع الأسف! ...

بجماليون: إنك يا نرسيس لم تَعُد تصدقني!

نرسيس: ما أنت فيه الآن خير دليل!

بجماليون: ولم تَعُد تؤمن بي.

نرسيس: أنت نفسك لم تَعُد تؤمن بنفسك.

بجماليون: كفى!

نرسيس: كل شيء فيك الآن ينطق صائحًا! ...

بجماليون: لا تقُل شيئًا ... لا تقُل.

نرسيس: أرأيت؟ ... إنك تخاف أن أفتح فمي ... اطمئن ... لن أفعل إشفاقًا بك وعطفًا عليك!

بجماليون: اذهب عنِّي!

نرسيس: وهل في مقدوري أن أذهب عنك؟

بجماليون: أيها المفتون! ... إني أبغض الآن سماع صوتك.

نرسيس: سألزم الصمت لتتكلم أنت.

(لحظة إطراق.)

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** أتكلم أنا؟!

نرسيس: نعم ... دعني أسمع صيحات نفسك!

بجماليون (صوتٌ خافت)**:** وما النفع؟

نرسيس: أرأيت؟ ... إنَّ كلماتك لن تكون غير صدى كلماتي!

بجماليون: آه أيها الشقي! ... أيها الشقي! ... كيف أستطيع الخلاص منك ... أنت الذي أراه ماثلًا أمام وجهي دائمًا ... إني إذ أنحني على الغدير الراكد في أغوار نفسي لأرى صورتي ... إنما أُبصر صورتك أنت ... نعم ... أنت بزهوك الأجوف، وكبريائك، وحمقك، وعماك! ... أنت الشطر الجميل العقيم من نفسي ... أنت الخطيئة التي كُتب على كل فنان أن يحمل وزرها ... الافتتان بالنفس ... الافتتان بالذات!

نرسيس: ولِمَ لا؟ ... أنت عبقرية خالقة ... بالفن صنعتَ حُسنًا خالدًا!

بجماليون (هامسًا كالمخاطِب نفسَه)**:** تمثالها!

نرسيس: لا ... ليس تمثالها ... إني أمنعك عن الكلام هكذا ... هذه المرة أنا الذي يُحرِّم عليك ذكرها على هذا النحو ... ذاك حدثٌ جاء ومضى، ويجب أن تنساه ... حدثٌ طارئ لا شأن لك فيه! ... بل هو حلمٌ من الأحلام المضحكة الزائلة ... إنَّ ما تسمِّيه «زوجتك الحيَّة» لا وجود له إلا في رأسك ... أما هذا التمثال العاجي فهو الحقيقة الباقية ... إنك لتفقد عقلك وفنك إذا أصررتَ على اعتبار هذا التمثال صورةً لزوجة ميتة ... اخلع رداء «الأرمل» الحزين الذي ترتديه سرًّا يا بجماليون! ... عُدْ إلى فنِّك! ... وارجع إلى تمثالك، واحدب على عملك! ... انظر إليه الآن؛ كما كنتَ تنظر إليه من قبل ... انظر!

(يتجه نحو الستار.)

بجماليون (يُشيح بوجهه)**:** لا ... لا أريد أن أرى صورتها جامدةً متحجرة!

نرسيس: صورتها؟!

بجماليون: آه ... لقد اختلط الأمر في رأسي: أيهما الأصل، وأيهما الصورة؟! ... قل لي يا نرسيس: أيهما الأجمل، وأيهما الأنبل؟ ... الحياة أم الفن؟!

نرسيس: ألم أُقل لك إن كل شيء فيك الآن ينطق صارخًا: إنك ... إنك تشكُّ في فنِّك؟ ... لقد منعتني الساعة من أن أقولها ... فها أنت ذا الآن الذي يتكلم!

بجماليون: أجل يا نرسيس ... إني أشكُّ.

نرسيس: لقد أدركتُ ذلك منذ رأيتك تتجنَّب رؤية التمثال ... لقد مَضَت أيامٌ دون أن تدنو منه، أو تدَع أحدًا يُزيح عنه الستار! ... انظر ... لقد تجمَّع التراب حول قاعدته ... لا يجب مع ذلك أن نتركه هكذا ... أين المكنسة!

بجماليون (كالمخاطِب لنفسه)**:** المكنسة!

نرسيس: ماذا دهاك؟ ... بمَ تهمس؟

بجماليون (ينهض بشدَّة)**:** إني ذاهب.

نرسيس: لا ... لن تغادر الليلة هذا المكان!

بجماليون: إني ذاهب.

نرسيس: الريح تعصف ... لقد جرَّ عليك الخروج ليلًا ما وقعتَ فيه من مرض ... لن تَخرج الليلة ... سأحُول بينك وبين ذلك بكل قواي!

بجماليون: الويل لمن يحاول منعي! ... سأذهب إلى الكوخ شأني في كل ليلة ... لا أستطيع أن أقضي الليل مع تمثال جامد يذكِّرني بجريمتي ... إنها تنتظرني هناك ... شأنها في كل ليلة! ... زوجتي! ... زوجتي ... آه ... إني قاتل زوجتي!

نرسيس: أيها المسكين! ... لا تقُل ذلك! ... كل هذا أيضًا من صُنع خيالك!

بجماليون: اسكت أيها المجنون!

نرسيس: أنا المجنون؟! ... ماذا أفعل الآن؟ ... أصغِ إليَّ يا بجماليون ... دعني أذهب معك ... الظلام الليلة حالك، والرياح تزأر في الغابة، وأنت على ما بك من الضعف ... ربما احتجتَ إلى ساعدي يُعِينك على السير!

بجماليون (صائحًا)**:** لا ... لا يذهب معي أحد ... إني أذهب إليها بمفردي.

نرسيس (يائسًا)**:** اذهب إذن!

(بجماليون يتدثر بدِثارٍ ثقيل، ويخرج من باب الدار.)

نرسيس (يفكر لحظة، ثم يتحرك سريعًا): هذا المخبول سيحتاج إليَّ!

(يخرج في أَثَر بجماليون.)

(فاصلٌ موسيقي.)

(يظهر أبولون وفينوس في النافذة، ثم يقود أبولون فينوس من يدها إلى داخل الدار.)

فينوس: وبعدُ يا أبولون؟! ... ألن تكفَّ عن المجيء بي هنا كل ليلة!

أبولون: لا أستطيع أن أقضي الليل دون أن أُلقي نظرة على هذا التمثال!

فينوس: لَكأني ما أعدتُه أخيرًا إلى حاله هذا إلا من أجلك أنت.

أبولون: لقد كانت خسارة كبرى لو أنه ظلَّ امرأةً حية، ولا شيء غير امرأة حية؛ كألوف الألوف من النساء!

فينوس: يا للعجب! ... إن صاحبه لا يقول ذلك الآن!

أبولون: إنه مريض!

فينوس: إنه يهرب منه كل ليلة كما ترى.

أبولون (يرفع الستار، ويتأمل التمثال): انظري كيف تخيَّل هذا؟ ... كلما تأملتُه انتشيتُ عينَ النشوة! ... أي حلم بشري يغمرنا بروعته نحن الآلهة!

فينوس: أما بجماليون ... فإن الحلم الذي يغمره الآن هو شبح زوجته الحية!

أبولون: وا أسفاه!

فينوس: لماذا تأسف؟ ... هذا ما كان يجدر أن نغتبط له ... أنسيتَ تحدِّيه لنا، وتهجُّمه على مقامنا ... أنسيتَ كبرياءه الوقحة في مخاطبتنا، وصيحاته المُهينة التي ألقى بها في وجوهنا؟ ... أنسيتَ!

أبولون (في غير اكتراث وهو يتأمل التمثال): نعم ... نسيتُ.

فينوس: إنك تنسى دائمًا ... أمَّا أنا فلا أنسى.

أبولون: هذا أيضًا في طبيعتك.

فينوس: يدهشني كيف أمحى من ذهنك — على الأقل — قوله صارخًا: يا سكان أولمب ... في إمكاني أن أقيس قامتي إلى قامتكم ... سلاحكم الحياة، وسلاحي الفن ... خذوا عملكم الفاني المحدود، وأعطوني عملي العظيم الخالد!

أبولون (وهو ما زال يتأمل التمثال): أهو قال ذلك؟ ... لو كان قاله فقد أصاب!

فينوس: ويحك يا أبولون ... ويحك! ... لماذا يحلو لك دائمًا أن تخذلنا مع البشر ... إن الساعة الآن ساعتنا ... إنه الآن يقرُّ بأن الحياة أجمل من الفن ... إنه لا يستطيع أن يبتعد عن ذلك الكوخ الذي بعثتُ إليهما فيه كيوبيد يرشق جسديهما بكل ما عنده من سهام ... ويشعل قلبيهما بما يملك من ضرام ... وينثر على فراشهما كل أزهاره ومتعه ولذَّاته ومسرَّاته ... إنه الآن يعترف بأن الحياة أنبل من الفن ... فيرى المكنسة التي كانت في يد زوجته الطيبة الرحيمة؛ أرفع معنًى من لفتة تمثاله المتعالية! ... إنه الآن يكاد يخرُّ على ركبتيه كالدوحة المتداعية، وكل شيء فيه ينطق صائحًا: لقد انهزمتُ!

أبولون: ألن تكفِّي عن ذكر الهزيمة والانتصار أيتها المرأة ... عفوًا ... أيتها الإلهة! ... لستُ أرى الأمر كما تَرَين يا فينوس! ... تأمَّلي التمثال ... إني الآن أدرك أن كل ما وضعنا نحن فيه قد أفسده حقًّا وأخرجه عن نطاق الفن! ... هو الآن كذلك ... آية فنية ... لقد صدَق ... إننا معشر الآلهة قد نستطيع الإتيان بكل المعجزات ... إلا الفن ... تلك معجزة الآدمي العبقري وحده!

فينوس (تهتزُّ غيظًا): وبعدُ؟ ... وبعدُ؟

أبولون: لا شيء ... كما تَرَين ... يظهر أن كلًّا منا ينحني الآن إعجابًا أمام عمل الآخر! ... هذا كل ما في الأمر ... لا أقل ولا أكثر!

فينوس: هكذا تحرمنا أنت ثمرة انتصارنا في اللحظة الأخيرة؟!

أبولون: بئس هذا الانتصار على الوجه الذي تفهمين ... ومع ذلك لم يسقط بعدُ صريعًا ... إنه جريح ... والشكُّ يُدمي نفسه! ... لكن ... ليس لأحد أن يزعم أنها النهاية ... والآن يا فينوس ... هل لكِ في أن تمنحيني لحظة صمتٍ كي أتأمل التمثال في هدوء وسلام؟

فينوس: متى تَشبع من النظر إليه! ... لكأنك الليلة تريد أن تملأ به رُوحك.

أبولون: أخشى أن يرتكب بجماليون ... حماقة!

فينوس: أتحسُّ ذلك؟

أبولون: وأنتِ؟

فينوس: أنا أيضًا أحسُّ أن شيئًا سيقع الليلة!

أبولون: إن لبجماليون عندي منزلة كبرى ... إنَّ مَن كان مثله يا فينوس ليستحق أن يُغتفر له عيبه، وزلاته، وضعفه، ووهناته ...

فينوس: صه ... إنه قادم!

أبولون: لم يستطع المسكين أن يبلُغ الكوخ!
فينوس: لقد عاد به صاحبه من منتصف الطريق!
أبولون: إنه يكاد يحمله حَمْلًا!
فينوس: هلُمَّ بنا! ... هلُمَّ بنا!
أبولون: لا ننصرف حتى نرى ... ابقَي معي خلف النافذة!

(فاصلٌ موسيقي.)

(يقودها، ويخرجان من النافذة، ويبقيان خلفها يشاهدان.)

(يُفتح باب الدار، ويدخل نرسيس وهو يسند بجماليون إلى صدره بينما صفير الريح يستمر، وحفيف الأشجار يُسمع.)

نرسيس (يُجلس بجماليون على مقعد)**:** فَلْتخلع عنك أولًا هذا الرداء الذي تلطَّخ بالأوحال.

(يخلع عنه الرداء الثقيل.)

بجماليون (وهو يلهث من التعب)**:** لماذا عُدْتَ بي؟
نرسيس: أكنتَ تريد مني أن أدَعك في الطين وقد سقطتَ إعياءً؟!
بجماليون: كان ذلك خيرًا لي!
نرسيس: أهذا كلامُ عاقلٍ يا بجماليون؟ ... إنك هنا الآن في دارك على الأقل ... حولك أسباب الراحة ... انتظر حتى أوقد لك نارًا!
بجماليون: لا ... لستُ أريد شيئًا!
نرسيس: وأخيرًا؟ ... هل أقنط من حالك؟ ... ثِقْ أني أوشك أن أزمع الانصراف عنك، وتركك وحدك!
بجماليون: تُحسن صنعًا لو فعلتَ!
نرسيس: إني لأكاد أُجَنُّ!
بجماليون: دعني يا نرسيس! ... دعني.
نرسيس: أخشى ... أن ...
بجماليون: لا ... لا تخشَ أن أغادر الدار الآن.
نرسيس: وإذا احتجتَ إليَّ؟

بجماليون: لا أظن أني أحتاج إليك!
نرسيس: إني ذاهبٌ إذن ... (كالمخاطِب لنفسه) ولكنْ سأبقى على مقربة منك!

(يخرج من الباب المؤدِّي إلى داخل الدار.)

بجماليون (ينظر إلى التمثال)**:** ها أنا ذا معك أيها التمثال! ... فلماذا أحسُّ أني وحيد؟ ... هذه الوحشة معك لم أشعر بها قَط من قبل ... لقد كنتَ أيها الأثر الفني تملأ عليَّ هذه الدار! ... لقد كان فنِّي يملأ حياتي ... أمَّا الآن فكل شيء في حياتي فراغ ... وكل شيء في عيني هباء ... ماذا أصنع؟ ... كيف أصنع؟

(بجماليون يضع رأسه بين كفَّيه، ويبكي.)

فينوس (همسًا لأبولون)**:** إنه لشقيٌّ تَعِس!
أبولون: حقًّا.
فينوس: ألا ترى أن نفعل شيئًا من أجله؟
أبولون: عجبًا! ... يظهر أن منظر رجلٍ يبكي أمرٌ يحرك قلب كل امرأة ... وإلهة!
فينوس: ليس من العيب أن يكون لي قلب يتأثر!
أبولون: بغاية السرعة؟!
فينوس: ما رأيك يا أبولون لو نفخنا الحياة في تمثاله هذا مرة أخرى، وأعدنا إليه زوجته من جديد؟!
أبولون: أتدرين ما الذي يحدث لو فعلنا ذلك؟
فينوس: ماذا؟
أبولون: عين ما حدَثَ في المرة الأولى ... يُقبِل على جالاتيا الحية معجبًا في بادئ الأمر ... ثم لا يلبث أن يراها أقل جمالًا وكمالًا من جالاتيا العاجيَّة ... فيطالبنا بردِّها كما كانت، صائحًا في وجوهنا بعين الألفاظ المُهينة ... فإذا أعَدْنا إليه عمله الفني؛ هدأ لحظةً، ثم عاد يراه أقل جمالًا وكمالًا من الصورة الحية ... وهكذا دَوالَيكَ ... لن يَقِرَّ له قرار، ولن يطمئن له بال ... فلا جمال الحياة يُشبعه، ولا جمال الفن يكفيه ... ولن يفتُر عن ملاحقة الجمال والكمال في شتَّى الأوضاع والصور، ومختلف الأشكال والأحوال ... لا ينطفئ له ظَمَأ إلا بانطفاء الشعاع الأخير من نفسه القلِقة الحائرة؛ من أجل ذلك يا فينوس قُلت لكِ كُفِّي عن ذِكْر الهزيمة والانتصار ... إن الحرب بيننا وبينه سجال دائمًا! ... ولن يكون الأمر غير ذلك أبدًا!

فينوس: إذن لا ينبغي أن نُصغي إليه، ولا أن نرثي له إذا سكب غزير الدموع ... فَلْيتقلَّب على مضجع الوحدة، وليئنَّ على فراشه البارد، وليمزِّق بأسنانه الوسائد؛ فلا يدفئه جسدٌ حارٌّ لامرأةٍ بالحُب مضطرِمة! ... وليعِشْ في هذا النضال الدائم إلى أن يسقط بغير قُبلةٍ رحيمة، على جبينه المتصبب بالعَرَق!

أبولون: هو ذاك يا فينوس! ... لقد رأينا من بجماليون — على الأقل — ما يُقنعنا كل الإقناع أنه يحسُن بالآلهة ألَّا يتدخلوا على الإطلاق في شئون العباقرة!

فينوس: صه! ... إنه ينهض وكأنَّ في رأسه فكرة!

أبولون: أخشى أن ...

(بجماليون ينهض ببطء، ويتمشى بخطًى ثقيلة نحو التمثال، ويتأمله لحظة، ويهزُّ رأسه يأسًا ... ثم يأتي بالمكنسة فيضعها في يد التمثال، ويتأمله لحظة ... ثم ينتزعها في عنف، وينهال على رأسه تحطيمًا بالمقبض الصلب للمكنسة.)

بجماليون (صائحًا هائجًا، وهو يضرب رأس التمثال): لا ... لا ... لا ... لم تَعُد مثالًا لما ينبغي أن أصنع! ... لم تَعُد مثالًا لما ينبغي أن يكون!

(يُفتح الباب الداخلي، ويدخل نرسيس.)

نرسيس (صائحًا): ماذا فعلتَ أيها الشقي؟! ماذا فعلتَ أيها التَّعِس؟!

(يرتمي على «بجماليون»، ويدفعه إلى فراشه.)

بجماليون (ساقطًا على فراشه): أدَّيتُ واجبي.

نرسيس (يعود إلى التمثال فيجمع بقايا الرأس من الأرض): لا ريب أنك فقدت الصواب!

بجماليون: سوف أصنع خيرًا منه!

نرسيس (وهو يحاول أن يضع بقايا الرأس في مكانها من التمثال): أنت؟ ... متى؟ ... أتحسَبك الآن قديرًا على شيء؟!

بجماليون (يهدر هائجًا وهو ملقًى على فراشه): سوف أصنع خيرًا منه ... في صدري أشياء سوف تخرج ... أشياء عظيمة في جوفي يجب أن تخرج.

نرسيس (في غيظ): ليس هنالك الساعة شيء سيخرج غير رُوحك!

بجماليون: ماذا تقول يا نرسيس؟
نرسيس: إنك انتهيت يا بجماليون!
بجماليون (يحاول الاستواء على فراشه)**:** اسكت أيها الأحمق! ... لن أموت قبل أن أصنع تمثالًا هو آية الفن الحقِّ ... إني حتى الآن لم أكن قد وضعتُ يدي على السرِّ ... سرِّ الكمال في الخلق ... لقد أضعتُ حياتي في الصراع ... صراع مع الفنِّ؛ لاستلاب مفتاحه، وامتلاك الأسلوب ... وصراع مع ملَكاتي وغرائزي، أو القوى الداخلية التي هي نفسي ... وصراع مع المصائر والأقدار، أو القوى الخارجية التي هي الآلهة ... صراع طويل صمدتُ له ... ومع هذا كله (كمَن يكلِّم نفسه) أترى هذا الصراع كان ضربًا من العبث؟! ... إني الآن أرى وأبصر وأعرف وأقدِّر ... لكن ... لكن ...
نرسيس (في قلق)**:** لكن ماذا يا بجماليون؟

(بجماليون لا يجيب.)

فينوس (تهمس لأبولون)**:** هلُمَّ بنا!
أبولون: أرأيتِ الحماقة التي ارتكبها ... ولكنهم هكذا دائمًا يحطمون الجمال الذي يصنعون؛ ليعيدوا بناءه من جديد.
فينوس: متى؟ ... ألا تراه يلفظ النَّفَس الأخير؟
أبولون: نعم ... ولكن رُوحه باقٍ ... رُوح بجماليون باقٍ ما بقيَ فنٌّ على الأرض!
فينوس: هلُمَّ بنا يا أبولون!
أبولون: هَلُمِّي بنا يا فينوس!

(ينصرفان.)

بجماليون (في صوتٍ خافت)**:** نرسيس! ... أظن أن ... أنك ...
نرسيس: ماذا يا بجماليون؟!
بجماليون: إنك ... أنت ... على حقٍّ.
نرسيس: إني كنت أمزح ... إنك بخير يا بجماليون! ... بجماليون أبي ... صديقي.
بجماليون (في شبه حشرجة)**:** أحسُّ البرد!
نرسيس: أأغلق هذه النافذة؟!
بجماليون (في حشرجة)**:** نعم ... لقد آن الأوان!

هنـــداوي